الهادي المبروك الدالي

أدبُ أفريقيا فيما وراء الصحراء



دار صنين للطباعة والنشر والتوزيع

من روائع أدب أفريقيا

فيما وراء الصحراء

من روائع أدب أفريقيا

فيما وراء الصحراء

جمع وتقديم وتعليق

الهادي المبروك الدالي

الطبعة الأولى
1996

الناشر:
دار صنين للطباعة والنشر

بيروت ـ لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الأمين،

وبعد، فقد كانت أول إطلالة لي على الأدب الأفريقي في عام 1985 م عند زيارتي لأفريقيا فيما وراء الصحراء، ولا سيما جمهورية مالي، فكانت لقاءاتي مع أدباء تلك المناطق في ليالي تنبكت وجاو المقمرة وعلى رمالها الذهبية الساحرة، سبيلاً للحديث عن أدب الصحراء وتنوع ينابيعه وأغراضه وعربيته، كما وأنه مستمد قوته من شعر ما قبل الإسلام، ومن بطولات الآباء والأجداد في هذه المنطقة من أفريقيا، فأحسست بحنين يشدني، وعزة ترقى بي إلى عنان السماء. كما توصلت إلى معلومات غاية في القيمة، تؤكد الامتداد الطبيعي والحضاري لأبناء القارة الواحدة.

وكم كنت متعطشاً لمثل هذه المعلومات، ومن حسن حظي أن جمعني الله بنخبة من أدباء ومؤرخي السودان الغربي (غرب أفريقيا)، ففي مدينة جاو التقيت بالعاليم والأديب الجليل محمد الطاهر العلوي، مدير مدرسة سبيل الإسلام لتعليم اللغة العربية والقرآن الكريم، ومدير دار معمر القذافي لجمع التراث العربي الأفريقي. ونزلت ضيفاً عليه وقد استفدت منه كثيراً ورافقني

في رحلاتي الصحراوية، التي كانت فرصة ذهبية شرح لي فيها عن كل منطقة مررنا بها.

كما التقيت في مدينة تنبكت بنخبة من أدبائها وعلى رأسهم الدكتور محمود الزبير مدير مركز أحمد بابا التنبكتي، والأديب وشاعر الصحراء عادل محمود الأرواني، الذي يعدّ أديباً من الطراز الأول اطلعت على جزء من أشعاره. إضافة إلى ذلك التقيت في باماكو بالأديب كادي درامي، فكان خير معين لي.

هؤلاء الأصدقاء وغيرهم من الأحياء حفوني برعاية خاصة على رمال الصحراء الذهبية، وتجاذبنا أطراف الحديث عن التاريخ المشترك، وأخذوا يضربون لي المثل بالقبائل، العربية الليبية والمغربية التي لها امتداد في جنوب الصحراء وجزء من أبنائها معي يمتعونني بأحاديثهم الطريفة على الامتداد الطبيعي لأبناء القارة الواحدة، ثم إلى المآثر الحضارية العربية. ويشير لي الأصدقاء بأصابعهم إلى حي الغدامسية، القريب من جلستنا الشاعرية، وإلى قصبة المغاربة، وجامعة سنكري التي شيدتها أيدٍ ليبية مغربية على الطراز المغربي الإسلامي.

كم كنت فخوراً بهذا الامتزاج الحضاري وحزيناً في نفس الوقت، على هذا الانقطاع بين أبناء القارة الواحدة، ذات التاريخ والعادات والتقاليد المشتركة، وكم تمنيت في قرارة نفسي أن يعود بي الزمن إلى الوراء قليلاً لأتأمل، ولو للحظة واحدة تلك الفترة الزاهرة من تاريخ هذه القارة.

إن أفريقيا بكر للدراسات، سواءً كانت تاريخية أم أدبية أم علمية، فهي لم تحظ من قِبَل أبنائها بدراسات معمقة اللهم، إلا شذرات لا تشفي غليل الباحث، وتراثها الثقافي تلتهمه أرضة الأرض في بيوت أهلها المبنية بالطين دون أي اكتراث من قبل حكامها وأبنائها! ورجل الصحراء يبحث عن قوته اليومي في ظل الفقر الذي فرض عليه، ولا وقت له للبحث عن التراث

الثقافي، الذي يضيع يوماً بعد يوم. وبالرغم من المحاولات الجادة لمركز أحمد بابا التنبكتي بمدينة تنبكت، ودار معمر القذافي لجمع التراث العربي الأفريقي بمدينة جاو، إلّا أن حجم العمل أكبر من ذلك، فالإمكانيات المتواضعة لهذين المركزين غير كافية للنهوض بالواجب المنوط بهما.

والدارس للتراث الأفريقي يلمس حقائق تؤكد أصالة وامتدادات الشعوب الأفريقية واتصالها ببعضها، والتاريخ والعادات والتقاليد المشتركة، فلا نلمس فرقاً كبيراً في الأدب الشعبي الليبي والمغربي عما هو موجود في جنوب الصحراء، فالإيقاع واحد والكلمات تحمل نفس المضمون وإن اختلفت المقاصد، والذي يتغنى به الشاعر الليبي يتغنى به شاعر تنبكت وجاو وجن واقدز وكانم ويرنو.

وربما نجد في اصطحاب الملك منسا موسى ملك مالي في القرن الرابع عشر الميلادي للمهندس الليبي عبدالله الغدامسي وبناءه بصحبة المهندس أبي إسحاق الساحلي جامعة سنكري على الطراز المغربي الإسلامي، ووصول المهندس الليبي عبدالله الغدامسي إلى أرفع المناصب لدى سلطان مالي بأن أصبح مستشاره الأول، ما هو إلّا دليل على مكانة العرب الليبيين في نفوس حكام وأبناء جنوب الصحراء، وما كان عليه هؤلاء من الحكمة والعلم والدراية حتى أصبحوا مستشارين لهم.

بالإضافة إلى ذلك إسلام ملك غانة الوثني ورعيته على يد الداعية العربي الليبي علي بن يخلف النفوس عام 1157م دليل آخر على عمق الصلات، وتبحر أبناء ليبيا في العلم وقدومهم من بيئة ذات حضارة زاهرة، كذلك دراسة الحسن الوزان المعروف بليون الأفريقي والذي يُعد كتابه وصف أفريقيا أعجوبة عصره، وبواسطته دخل الأوروبيون إلى غرب أفريقيا في القرن الخامس عشر الميلادي، ولجهلهم كانوا يطلقون عليها القارة المظلمة، كانت دراسته الأولى في فزان بليبيا.

إن كل الشواهد الدامغة على الامتداد الطبيعي لأبناء القارة الأفريقية المسلمة تدحض افتراءات الأوروبيين المستعمرين ومحاولاتهم طمس هذه المعالم زاعمين أن سبب تأخر الأفارقة هم العرب. ولكن كلمة أقولها: نحن أبناء هذه القارة يربطنا مع بعضنا تاريخ وعادات وتقاليد ولغة، فأربعون في المائة من اللغات الأفريقية: الفلانية والهوسا والسوحلية عربية المفردات، وعلى ذلك فلسنا دخلاء على أفريقيا، فأفريقيا للأفريقيين ولا حلف لأفريقيا إلّا مع نفسها.

إن هذه الدراسة التي بين أيدينا تندرج، ضمن سلسلة من الدراسات التي أقدّمها عن منطقة غرب إفريقيا. فهذه أشعار لأدباء أفارقة كتبوها باللغة العربية، منهم من ينحدر من أصول ليبية، وهي تؤكد عمق الترابط الحضاري وتجذر اللغة العربية بين أبناء تلك المناطق، فالعروبة أسبق من الإسلام هناك.

وأستسمح القارىء إغفالي المتعمد لأحد فنون الشعر الصحراوي الذي هو الغزل لحاجة في نفسي.

وكلمة أخيرة أقولها للشباب الأفريقي: يا شباب أفريقيا الناهض الوثاب، قُم من سباتك، وكسّر القيود، وحطّم الأغلال، وتسلّح بسلاح العلم والإيمان، حتى تعود بقارتك إلى شاطىء الأمان قبل أن تغرب نهائياً، وإن الصحراء دائماً منبت للرجال الأشاوس أصحاب القيم والأخلاق النبيلة.

الهادي المبروك الدالي
1995/6/22م

الفصل الأول

شعر الحماسة

شعر الحماسة

هذا اللون من الشعر تغنَّى به شاعر الصحراء، عندما بدأت طلائع الاستعمار الفرنسي تقترب من بلاده، فالشاعر كان لسان قومه، وهو الذي يرشدهم ويحذرهم من أي مكروه، فقصيدة الشاعر عثمان بن حولن الأنصاري يحذر فيها أبناء جلدته من التعامل مع الاستعمار الفرنسي، والثقة فيه.

عند دخول الفرنسيين إلى أرض السودان الغربي، أخذوا يعيثون في الأرض فساداً، ويتظاهرون بأن مجيئهم إلى تلك الديار له هدف نبيل، وشريف، وهو إخراج أبناء هذا الوطن من الجهل والمجاعة والتخلف، وتخليصهم من قيود الإسلام إلى النصرانية، ويخاطبون الأفارقة بأن السبب المباشر في تخلّفكم هم العرب الذين ارتبطتم بهم لفترة من الزمن، ومكّنتموهم من أنفسكم، ونصبتموهم حكاماً عليكم، واعتنقتم دينهم، وهم السبب المباشر في تأخيركم ونحن، (أي الفرنسيين) أتينا لإنقاذكم مما لحقكم من جهل وتخلف، فكأن الجهل والتخلف مكتوب على العرب.

ولكن أهل السودان الغربي كانوا متيقظين لهذه الأقاويل التي لا تنبىء إلّا عن حقد دفين. وظهر شاعر الصحراء معرياً كافة ألاعيبهم حيث يقول لهم في هذه القصيدة، إن ما ترمون إليه كله معروف عندنا، ويحذر أبناء وطنه من التعامل مع المستعمر والثقة في كلامه. ويطلب منهم أن يكونوا

يداً واحدة ضد العدو، وأن يكروا عليه كرة رجل واحد، ولا يتنازعوا فتذهب ريحهم. والشاعر الصحراوي، يأتي لهم بأمثلة من الطبيعة المحيطة بهم ويذكرهم بقصة الأسد مع ثيرانه وأن يأخذوا العظة والعبرة من ذلك، ويحذرهم من أن وُعود الاستعمار كلها كاذبة وخادعة، وإن الجهاد يقوم به المسلمون فهو طريقهم إلى النصر، ومن لم يستطع مقارعة الأعداء فعليه بالهجرة بدينه حتى لا يتعرض لضيم المستعمر. وشبّه الشاعر المستعمرين بالأفاعي، حيث يبدو الشاعر مثقفاً دينياً وأدبياً فهو يستمد شعره من صور شعرية بديعة.

وله قصيدة أخرى يهجو فيها الخونة المتعاونين مع الفرنسيين. ثم يمدح أميرهم اللود الأنصاري في قصيدة ثالثة.

قصيدة عثمان بن حلون الأنصاري

من بحر الكامل:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

وَمَنْ يُحكّم كَافِراً في نَفْسِه ... لاَ غَرو أَنْ باءَ بِشَرٍّ مَقتَلِ(1)

كُونُوا على العدوِّ في اللّهِ يداً ... ففِي التّنازُعِ لُزُومُ الفَشَلِ

بل قصّة الأسَد مع ثِيرانه ... فيها لكُم ذكرى وضَربُ مَثلِ

فَالضَّيغَم الضيغم يا من رام أنْ ... يَسرِي في اللّيلِ البهيمِ الألْيَلِ(2)

وَعْدُ النّصارى كَذِب وعدلُهُم ... جُورٌ وميرهُم وخيمُ المآكلِ

لا تتراءى نار مُسلمٍ وكما ... فر نهى عن ذاك خيرُ مُرسَلِ

وسِلمُهم حربٌ وبذلُ مالهم ... يقلبُ بالمكيدِ والتّحيُّلِ

والسّمُّ في جوارهم وقُربِهم ... ومُسلمٌ بنارهم لا يصطلِي

ومن يُوالِ الكافرين فهو من ... ولايةِ اللّه لهُ بمعزل

وكُلُّكم الذّين إلى من دُونكُم ... من اللُصُوص بئس شأنُ الوكلِ(3)

إنّ الجهادَ ذروةُ الإسلامِ لا ... يبغِي به باغي الهدى من بَدَل

هل تكرهُونَ في الجهادِ أحد الـ ... ـحسنيين جنة ونَفَلِ

---

(1) باء: رجع

(2) اللّيل الألْيل: الشديد الظلمة.

(3) الوكل: العاجز.

على القوي كُتِبَ الجهادُ لـ … ـكن هجرةٌ على الضعيفِ الأعزلِ

وَالَجورُ والإسلامُ في بلادنا … خيرٌ من العدلِ مع الكُفرِ الجلي

مصلحةُ الدينِ عَلى الدُّنيا يُرى … تَقْدِيمَهَا حتماً فَراعِ الأفضلِ

واللّهُ ضامنٌ لمن هاجر في … سبيله سعة عيشٍ مُخضلِ[1]

ضمان قادر كريم مُوسرِ … منّا وفي العهد تفضُّلِ

وهاربٌ بدينهِ شبراً لهُ … في جنَّةِ الفِردوسِ خيرُ نُزُلٍ[2]

فإن يمت فضمرةٌ سَلَفهُ … وهل لهُ من راغبٍ مُمتثلِ

والموتُ خير للفتى من مقعدٍ … بين الأفاعي والأُسُودِ البُسّلِ

وكونِه تحت خبيثٍ مشركٍ … علج عنيفٍ أعجمٍ مُشتَثْقَلِ

مُنتسبٍ لربّهِ مُثلثٍ … مُجسّمٍ مُشبهٍ مُعَطّلِ

لا يَتّقِي النَّجَس وَلَا يستاكُ من … خُبثٍ ولا يدينُ دينَ الرُسُلِ

يسُومُه سُوءَ العذابِ كُلَّمَا … خَالَفَهُ في نيّة وَعَمَلِ

وإن دَعَا لـبُّى وقَام مَاثلاً … بين يديه مُظهِرَ التّذلُّلِ

هذا هُو البَلاءُ نَرجو عِصْمَةً … ممَّنْ يُعَافي من يَشَا ويَبْتلِي

تأبى الْمُرُوءةُ لأهلِها ويأ … بَى العقلُ والشَّرعُ بذلكَ المنزِلِ

ها إنَّ ذي نصيحةٌ من رَبّنَا … نَرجُو قَبُولَهَا إذا لَم تُقبلِ

صلّى إلَهُنا على مُحمّدٍ … وآلِهِ أهْلِ المقامِ الأكملِ

وَخُلَفائِه أبي بكرٍ وفا … رُوق وعثمانَ وَمَولانَا عَلي

* * *

---

(1) عيش مخضل: ناعم.

(2) نزل: ثواب.

وللشاعر عثمان بن حوالن الأنصاري قصيدة يهجو بها الخونة المتعاونة مع الفرنسيين ويمدح أميرهم اللود الأنصاري.

القصيدة هي من البحر البسيط

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

رَاحَ الزَّمانُ بأمرٍ مُبرمٍ هِمَمٍ ... ما بَيْنَ مُبْتَدِإِ امنهُ ومُختَتَمِ
بين الأَحبّة والأوطانِ أودِمَنٍ ... وفقدنا ذِي الكرام السَّادةِ النُّجُمِ
وَدَارُ عزَّةَ من هَينٍ إلى فرشٍ ... وَبَربَر روضةُ الغَرباءِ والعجَمِ[1]
يا لائمي لا تَلُم فالقلبُ مُحترقٌ ... لو كُنتَ تعلم ما في القلب مِنْ همم
وحقُّ جفني يُسيلُ الدمعَ من جزع ... والقلبُ للحزنِ والأوصال للسَّقم
والعينُ تدمعُ من شهرٍ إلى سَنَةٍ ... فما ارتَضَى الْبَثُّ بالدُّمُوعِ دُون دَمِ
يا قائماً بحذا عزٍّ أعِدْ خبراً ... عن منزل بجناب الهين منهدم
ومعهد قسم الفقدان أربعة ... بين الوحوش وبين الريح والدِّيَمِ
وكان من قبلُ وسط الحيِّ كركرةً ... مَوالِع النوق والأُتباع والخدمِ[2]
وقد أراق فراقي من دماء فكم ... دمٌ يراقُ بغيرِ الجرح والكلمِ
وكم حليمٍ شديدِ الصبر تيَّمهُ ... وعد الفريقِ وطُولُ البينِ والهممِ
حيّاكِ يا دارَ عزٍّ من هُناكِ حياً ... يهمِي بمنهمرٍ في الرَّوضِ مُبتسمِ[3]
عن ثَغر زهر بنورِ التّوز مبتهجاً ... من مُورقٍ أنق الأوراق مُلتئمِ[4]
حتى غدا كُلُّ نجدٍ في مَحَاجرِهَا ... مُخرِراً من أتيِّ الماءِ مُنسجمِ[5]

---

(1) هين وفرش: موضعان، بربر روضة: مقابر الأنصار.

(2) الكركرة: الجماعة، والموالع: جمع مالعة أي مسرعة.

(3) يهمي: يصبّ.

(4) التوز: نوع من الشجر يكثر بصحراء السودان الغربي.

(5) المحاجر: الحدائق، والمخرر: المصوت، والخرير: صوت الماء، والأتي السّيل.

والطير تغردُ والأغصانُ لاعبةٌ ... ضفادعُ الرَّوضِ في النقيقِ من أَمَمِ(1)
تلك الفتاةُ التي يلهو بها أحدٌ ... عن السَّميرِ وعن أهلٍ وعن رَحِمِ
كَحلاءُ في سعةِ العينينِ واضحةٌ ... لَعساءُ في شفتيها حُوَّةُ الأدمِ(2)
عجزاءُ ممكورةٌ براقةٌ قلِقٌ ... عنها الوِشاحُ وتمَّ الطبعُ في الكرمِ(3)
كَم منْ خليلٍ وزيرٍ مُصعدٍ عُذُراً ... فَوقَ الجبالِ وبينَ البحرِ والأكمِ
إلى ذُراها يزُورُ من تأثفها ... كأنّها قريةٌ من كثرةِ الأممِ(4)
تزدادُ للعينِ إبهاجاً إذا ذهبَت ... وتخرجُ العينُ من وجهٍ إلى قدمِ
وكم أحنُّ حنين الثاكلات على ... آثارها وحنين البُعد كالعدم
عساكِ إنْ متُّ في ذكراكِ متُّ على ... تململٍ ما شَجَى صدرٍ بمُتَّهَمِ
لما تذكرتُ يوم السدرِ نازلةً ... مُقيمةً خدرها المضرُوبَ في الخيمِ
ونظرةً سَلَبَتْ قلبي فَطَانَتَهُ ... شجا الفؤاد بنارِ الوجدُ مضطرمِ
رُدّي بقيةَ روحٍ فاتَ من رمقي ... يا دِيمةً خَرَجَتْ في أحسنِ الدِّيمِ
سَحارةُ الطرفِ تَرْمِي من محاسِنها ... حَبَّ الفؤادِ بسهمِ العين مُبرهمِ
وأرثي لقلبي بما في سحرِ عينكِ من ... حبائلٍ آخذاتِ الرأس والقدمِ
ورُبَّ شوقٍ مُذيبٍ لي إليك مَضَى ... حتَّى أذابَتْ به الأعضاءُ من ألمِ
وصفتُ حالكِ للعشاقِ فارتفعت ... أخبارُ حُسنِكِ في الفَيفَاءِ والأُطُمِ(5)
وتحتَ سَقفِكِ شخصٌ عنْ ظواهِرِه ... نُورٌ كبهجةِ نور البدر في الظلَمِ
خَلفَ الخمارِ جمالٌ قد تخامَرهُ ... حسن الطَّبائعِ من حلمٍ ومن كرمِ
عواطلُ السِّربِ ترعى في مَراتِعها ... فريقُ عِزَّةٍ بين الشوقِ والهممِ
وَمَا رَعَى من هواها إذ تذكَّرَها ... إلّا بدمعٍ على الخدّينِ مُنسجمِ

(1) النقيق: صوت الضفادع، والأمم: القرب.
(2) اللعس والحوة والأدمة: حمرة تميل إلى السواد.
(3) الممكورة: المرأة ذات الساق الغليظة.
(4) تأثفها: اكتنفها.
(5) الفيفاء: الفلاة.

كم من قتيل الهَوىَ العُذري في بلدِي وقد أفاق من الأحزان بالحُلم
لما تصوَرها للعين في سِنَةٍ له فهشَّ وَدَاوى القلبَ من سَقمِ
حيّاكِ ربُّ الوَرَى في كلِّ آونةٍ بكُلِّ مكرُمَةِ الأخلاقِ في الذّمَمِ
وأصبحَت في نساء الحيّ طاهِرةً فوق اللّذاتِ بحُسن الخلقِ والشيمِ
وَفي الخُدُور بُدُورٌ قد تألّفَهَا أتباعُ صدقٍ من الأحرارِ والخَدمِ
يمشين مَشْيَ الظّباء عن خناجِرِهَا كواكبٌ من قلائدٍ ومن ضَرمِ
كم من فقيهٍ نبيهٍ زاهدٍ ورِعٍ أصْبَبتُهُ وهَوَى وَهَمٌّ بالسلمِ
لكن إذا طلعت شمسُ للنهار فلا ترى النجوم ولا بدراً على الأُطُمِ
كم عاقِلٍ رَمَتْهُ فانفجرت منه عُروقُ الهوى العذري من رأمِ[1]
وقد تسليتُ عن تَبْرِيحي يا كَمَدِي بعد النَّوى بصَوار الظَّبي والدّيَمِ[2]
ودمنةٍ نسفت عنها الصَّبا سفعاً كأنّها خُطُط عن أملس الأدمِ[3]
لغياً بلغي ترى الأثافي كامِنَةً أو الجوادر من مور ومن هَدَمِ
بين الأُطُوم طويلاً ما تعاقبُهَا سَوَاهكُ الرّيح والإعصار والرُّكُم[4]
فبدَّلَ الأنسَ وحشاً والمُنى كمداً فما بها من طبيب السّقم والألم
فبتُّ ولهان في ربع تقسَّمَهُ سربُ القطا وصوارُ الظّبي مُنهدِمِ
وكان من قبلُ طال ما تكركرهُ مواكبُ الخيلِ والسُّعاةِ والرُّئمِ
وكلُّهم لذَرَى عزٍّ يطالبُها بنَظْرة العينِ أو بكلمة بفمِ
وَصيّر الدّهرُ ذاك شذراً مذراً يَا ليتَني ذاك لم أشهد من أممِ
يَا لائمي لاَ تَلمْ والنُّصحُ يُخبلُني والشَّوقُ ألبسَني دِرعاً من السَّقمَ
والبثُّ أمرضني والحزنُ أرّقني والهمُّ أسرعَ من رأسِي إلى قدَمي

---

(1) الرأم: الحب.

(2) الصّوار: القطيع من بقر الوحش.

(3) نسفت: أزالت، وسفعاً: رماداً.

(4) الشواهك: جمع ساهكة، الريح العاصفة.

والبينُ أولهني والدّهرُ كابَدَني ... يحملِ وجدٍ قصيمِ الظُّهرِ من دقمِ[1]
من بين عزّة والدُّموعُ تشهدُ لي ... ما بين مُنهمرٍ مِنّي ومُضطرمِ
تِلكَ الفتاةُ التي علّقتُها عَرَضاً ... ما مثلها في نساءِ العربِ والْعَجَمِ
كم من فلاةٍ مُهيلٍ ظَهرُها غَشِيتُ ... وجهي بأهوال الجوّ والشَّبَمِ[2]
فلا ترى العينُ إلّا ما يُخوّفُها ... كالتُّرسِ في شبهٍ والبحرِ في طَمَمِ[3]
لكن ترى الوحشَ في بحرِ الفلاةِ رَعَتْ ... وُجدجُداً بدل الحيتان والبلمِ[4]
أمسيتُ فيها أمجُّ البقلَ من عطشٍ ... إبّانَ قيظٍ مكان الماءِ والرّخمِ[5]
ولا أُعاقبُ عن ظهر الفلاةِ سِوى ... سرب الظّبا وقطاً وهيقمٍ صَتمِ[6]
وَرَهمةٍ ملأت عينيّ من رشقٍ ... وسط الفلاةِ ولا أُحسُّ من رنمِ[7]
إذا تلألأت البروقُ فاندفعت ... شآبِبُ القطرِ عن رأسي إلى قدمي[8]
فألجأتني إلى الأَشجارِ مُتّخذاً ... أكنافُها بَدَل الأبياتِ والخيَمِ
أنختُ وهمي وما إن نيخَ من تَعبٍ ... لكن لِحملِ غرابيبٍ من الدّيَمِ[9]
ترى الرّواتِكَ عن أعلى طَريقَتِها ... ما بَيْنَ مستتر عَنّي ومُقْتَحِمِ[10]
كأنّما فُلِقَت عنها ببلقعَةٍ ... حناظلُ القيظ أو جَمَاجمُ البهَمِ[11]

---

(1) الدقم: الضرر.

(2) مهيل: مفزع، والشبم: البرد.

(3) التُّرس: المجن.

(4) الجدجد: نوع من الجراد يكثر بالسودان الغربي ويلتهم المزروعات، والبلم: صغار السمك.

(5) الإبان: الوقت، والرخم: اللبن غليظ القوام.

(6) الهيقم: الظليم الطويل، والصتم: الشديد.

(7) الرهمة: المطر الضعيف والمستمر في النزول، والرنم: الصوت.

(8) الشآبيب: جمع شؤبوب، دفعة من المطر (شبوب).

(9) الوهم: الجهل، الدلول: ذو الجسم الضخم والقوي، والغرابيب السود والديم: الأمطار الدائمة.

(10) الرّواتك: التي تسيِّر الرّتك نوع من السير ويريد بها النعام.

(11) البهم: صغار الغنم.

كـأنَّ أعـنـاقُـهـا كـرأس سـائـفـةٍ ... أفـواهُـهـا كَـصُـدُوع الـنبـع والـوسَـمِ[1]

شُـخـتُ الـقـوائـم لا مـأوى لـهـا أبـداً ... إلّا الـدَّهـاسُ عـن الأحـقـافِ والـهـومِ[2]

تـرى الـظّـلـيـمَ تُحـاذيـهِ نَـعَـامَـتُـهُ ... يُـلـهـيـهِ مـاء ومـرعَـى الـدَّو عـن أكُـمِ[3]

حـتـى إذا مـا اسـتـوى عـن ربـوة نـظـراً ... وَشَـام أفـرخـتـهُ وخـاف مـنْ رُكُـمِ[4]

فـارقـدَّ مـن تـحـتـيْ عـرّاصٍ ويـطـرُدُهُ ... سَـواهِـكُ الـمـور والإعـصـارِ والـنَّـسـمِ[5]

تـتـبـعُـه صـعـلـةٌ خـرجـاءُ تَـطـرُدُهُ ... مَـراً تُـسـابِـقُـهُ فـي الـجـريِ والـنـجَـمِ[6]

فـكُـلّ مـا انـحـدرا فـي طـلـقٍ شـوطـهـمـا ... تـبـادرا مـاطـراً بـالـجـري كـالـضَّـرم[7]

لا يـأمـنـانِ ذئـابَ الـدّو أو غـرقـاً ... إن أغْـلَـسَـا دُون زُعـرٍ خُـرقِ الـتـلـمِ[8]

والـخـرقُ دون بـنـات الـبـيـض مُـنـتـهـبٌ ... كـمـا تـنـاهـبُ أُشـدُ ثَـلـة الـغَـنَـمِ[9]

لا يـدخـرانِ مـن الإيـغـالِ بَـاقـيـةً ... حـتـى تَـكـاد تـبـينُ الـريـشُ عـن أدم[10]

صـدعـتُـهـا لـذرى عـزّ عـلـى جـمـلٍ ... وهـم يُـبـاري نـسـيـمَ الأيـنُـقِ الـرُّسُـمِ

يـشـكُـو الـخِـشَـاشَ ومـجـرى الـسـعـتَـيـن إذا ... مـا شـدّه حـشـمـي بـالـكـورِ والـولَـمِ[11]

لا تُـشـتـكـي عَـثْـرَةٌ مـنـهُ وقـد قُـطـعَـتْ ... بـه الـمـفـاوزُ والـفـيـافـي بـالـسـعَـمِ[12]

---

(1) الصدوع: الشقوق، والنبع: شجر يكثر في السودان الغربي وربما يقصد به شجر النبق، والوسم: جمع وسمة، نوع من النبات.

(2) شنحت القوائم: رقيقة القوائم عارية من اللحم، والدهاس: الرمل الرقيق.

(3) آلاء: ثمر شجر، والدّوّ: الفلاة.

(4) شام: نظر.

(5) أرقد: أسرع، والعراص: المطر الشديد.

(6) الصعلة: الصغيرة الرأس، وصرجاء: فيها بياض وسواد، والنجم: سرعة الانصراف.

(7) ماطراً: أي سحاباً والضرر والحريق.

(8) اغلسا: اظلما، وزعر: قليلا الشعر.

(9) الخرق: الفلاة الواسعة، والثلة بالفتح: القطعة من الغنم.

(10) الايغال: الإسراع، والأدم: الجلود.

(11) الخشاش: ما يجعل في أنف البعير ليشد فيه الزمام، والكور: الرحل، والولم: حزام الرحل.

(12) السعم: ضرب من السير وحركة للضرورة. والفياني لو استبدلها صاحب القصيدة بالبيداء لكان أفضل.

كـأنـه عـاسـجـاً أو واسـجـاً أبـداً   وثبُ الـمسحّج بين العصرِ والغَسَمِ[1]
أمسى يشوقُ نحائصاً مُحملجةً   يرعى بهنّ قُتاتَ البقلِ في اليهمِ[2]
وبينما هُو يلهو في مآكله   من الحَناظِلِ والتُّنُّومِ والعنمِ
والحقبُ تتبعُهُ في الرعي لاعبةً   دهراً طويلاً وما سمعن من رَنَمِ[3]
إذ مُقنصٌ بين حُقبيهِ ومَرْكزهِ   أغرى به جُوعاً في القرب عن أكمِ
فارقدّ من فرقٍ بالجرى منحدراً   جرياً تكُونُ به الأحجارُ كالرّقمِ[4]
وصاحبُ الصيد حيّالٌ لبُغيتِه   ألفى أباهُ بذاكَ الكسبِ في القدَمِ
مقزّعٌ أطلس الأثواب ليس لهُ   إلّا الضراء وإلّا الصيد من نَعَمِ[5]
يُغري مهرتَه الأشداق ضاربةً   زُرقاً مخصّرةً من شِدّةِ الهضمِ[6]
كأن راكبةُ حقمٌ بمنحدرٍ   تخدِي بها دفعاتُ المور والرُّكُمِ[7]
يخدِي بمُنخرق الأثوابِ مُنصلتٍ   لأجل فرط ركوبُ الحرّ والشّبمِ
أخشى تنائف والضُّبانِ وقعتهُ   كحسوِ حقمٍ على الأنشاجِ والذّلمِ[8]
هاجتْ لها جُوَّعٌ في الأيك ضاريةٌ   شَوازبٌ من طَوى الأجوافِ والقَرمِ[9]
من البزاةِ طويلاً ما تكركرها   في الأيكِ لطخٌ من الأمطارِ في الديمِ

---

(1) عاسجاً: ماداً عنقه، واسجاً: مسرعاً، والمسحّج: المعضض، والغسم: الظلمة.

(2) نحائص محملجة: مفتولة شديدة، واليهم: البرّيّة.

(3) الحقب: الأتن التي في بطونها بياض.

(4) لو قال فارقد كان أفضل.

(5) مقزع: قليل الشعر، وأطلس الأثواب: أغبرها، والضراء: الاختفاء بالأشجار لصيد فريسة.

(6) الهضم: الضمر.

(7) الحقم: طائر يشبه الحمام يوجد بكثرة في مدينة جنى، وسيقوا، وفندام، إلّا أنه يختلف عنه بأن ساقيه أطول من الحمام.

(8) التنائف: الفلوات التي لا ماء فيها ولا أنيس. والضبان: الضباب، والوقعة: النومة آخر الليل، والانشاج: مجاري الماء، والذلم: مفيض مصب الوادي.

(9) الطوى: الجوع، والقرم: شهوة اللحم.

والصقر ساج إليها عندما وردت فبادرتها على الإيغال من أمم[1]
طارت إلى الجو والبُزاةُ طَالِبةٌ لها على تَكَمٍ من شدَّة الوحَم[2]
لا يدخرانِ من الإيغال باقيةً حتى تكاد تفرّى الرّيشُ عن أُدُمِ
يا صاح عُدْ عن بكَاكَ الدّهر من كمدٍ ولا تقُولن على ما فاتَ وندمي
إذ لا ارتجاعَ لما قد مرَّ من زمنٍ بسفحِ دَمع ولا التَّعدادِ والثُّكمِ[3]
وسَل عنهُ لحوزِ عالم ورع غطمطمٍ مَلِك العَرباءِ والعَجَمِ[4]
له متَنَازلُ عزّ من ألمّ بها تَنْفَتْ عليه قَتّامَ الذُّلِّ والهضمِ
لا يتّقي في حذاء أرضه أبداً من استجار به من فجأة الدُّقم
خِرقٌ توسّع للعافين نائلُهُ كالجودِ في منِ والبحر في همَمِ[5]
والعلم سيرتُه والزُهدُ حرفتُهُ والصبرُ عادتُه عن جفوةِ الوجَمِ
ما إن أتانا بلاء قد وقفنا به على شفا اليأس من هولٍ ومن عظمِ
إلّا ابتدرنا دارهُ نستجير به في صَدمةِ الدّهر أو في خيفةِ الهشمِ[6]
كأنَّ من خشَّ رَحباً في منازله من شدة الخوفِ في ركن ومُلتزِمِ[7]
لئن مدحتُ كريماً غيْرَهُ أضماً لكان معنى لمعنى القولِ والكَلِمِ[8]
لم تلهِهِ زهرةُ الدُّنيا وبهجتُها ولا التفاخر بالأموالِ والحشمِ
له الكراماتُ والأحوالُ شاهدةٌ ذا الدافعُ العلمُ بنُ الدافع العلَمِ
لو أنطق اللّه وحشاً في مراتعها لأخبرت بخصوصِ اللُّودَ بالكَرَمِ[9]

(1) ساج: ساكن.
(2) التكم: سنن الطريق.
(3) الثكم: لزوم الشيء والإقامة عليه.
(4) الغطمطم: الواسع الأخلاق.
(5) الجود: المطر الغزير، والجود: الكرم.
(6) الهشم: كسر العظم وحركة الضرورة.
(7) خش: دخل.
(8) الأضم: الحسد.
(9) اللود: هو الممدوح، أمير الأنصار، الذي قارع الفرنسيين إلى أن استشهد.

وكم تغيّر عنه جاهلٌ سفهاً ... وما تغيّر أقوالي ولا شيمي
تعساً لمن قال إني عبثةٌ حسداً ... كبْرَ[1] مقتاً عليه الوزرُ من دقمِ
قُلتُ مقالتي لا بالخوف أَو طمعٍ ... لكن أحصحصُ قولاً صادقاً بفمي[2]
له رجالٌ كرامٌ لا مثال لهُمُ ... لكنّهُم نقضُوا في العهدِ والذّمِ
إذ كاشحُوا وطن العرباء عن سفهٍ ... واستوطنوا بلد السودان والبرمِ
واستأثروهُ عن الأوطان فاتّخذُوا ... أعلاجَها بذْلَ العرباء والرُجِمِ
الكاشحون لغدر الخلّ في حضرٍ ... القائمون لهُ من شّدةِ العشمِ[3]
حتى إذا انصرفوا خاضوا مُعاينة ... في هَجْره وَنَسَوْا وصيّة السّلمِ[4]
وقد سبتهُم بطون في منازلهم ... إلى المآكل تحت الزومِ من بلمِ
يُعاقدُون لِئاماً في بلادهم ... من شدّةِ الخوفِ أو من قُترةِ الهضمِ[5]

(1) من المفروض أن تكون هناك واو: وقتاً لاستقامة الوزن.

(2) لو قال «قلت مقالي بلا خوف ولا طمع» أفضل من عبارة النص.

(3) العشم: الطمع.

(4) السلم: السلف.

(5) قترة الهضم: ضيق العيش

الفصل الثاني

الفخر بالقبيلة

ألوان الشعر

الفخر بالقبيلة:

شهدت منطقة جنوب الصحراء (السودان الغربي) حروباً قبلية طائفية، فكل قبيلة تنسب نفسها إلى جهة، وهذه الفوارق تجر حروباً بين ما يسمى أنصار الأنصار بن أمية.

ترجع قبيلة الأنصار التي هي الآن ضمن سكان جمهورية مالي، في نسبها إلى الأنصار الذين ناصروا رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، في مواجهة الشرك، وبذلك يفتخرون ويقولون الشعر تمجيداً لهم حيث يقول شاعرهم:

وأنتم من أمية قد ورثتم ونحن من معاذ وارثونا

يقولون إنهم من معاذ بن جبل، وإن كنانة من بني أمية، وأمام هذه البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان، فإننا نؤمن بأن الله واحد لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله لا فرق بين عربي وأعجمي إلّا بالتقوى والعمل الصالح. كلكم من آدم وآدم من تراب. فالتكريم يكون بالإسلام الذي جاء عن طريق الدعاة، والتجار، لهذه المناطق، أيام عثمان بن عفان، وبمجيئه ترك أهالي السودان الغربي الاعتقاد في ثعابين ووحوش ونار وقمر وشمس وارجار كومبي صالح، واعتنقوا الدين الإسلامي الحنيف، الذي

أخرجهم من الظلمات إلى النور.

لقد أزال الإسلام الفوارق الطبقية، من منطقة جنوب الصحراء، واختلطت دماء الفاتحين بدماء سكان الصحراء، وحدث تزاوج بينهم منذ وصول عقبة بن نافع الفهري بجيشه الفاتح إلى ضفاف نهر النيجر، وبالتحديد في منطقة كحل السوق (كيدال)، وتزاوج هؤلاء الفاتحون بالسكان الأصليين، وظهر عنصر عربي جديد يتمثل في قبائل الفلان، الذين يرجعون في نسبهم إلى جيش الفاتح العربي عقبة بن نافع الفهري، والتي جاءت تسميتها من ألفي عسكري تركهم عقبة على ضفاف نهر النيجر، فتزاوجوا مع السكان الأصليين وكوّنوا ما يعرف اليوم بالفلان، والكلمة تحريف «ألفان» (2000) وليس كما يدَّعي اليهود أنهم بقايا من الفلاشة. وقد التقيت بعدد من شيوخهم وشبابهم، في تنبكت وجاو وجن وأكدوا لي أنهم من نسل جيش الفاتح العربي عقبة بن نافع الفهري.

لقد أنجبت الصحراء شعراء تغنوا بأمجاد بلادهم، وافتخروا ببطولتهم، ومن بين هؤلاء الشعراء الذين برعوا في الفخر الشاعر أحمد سالم بن السالك من بني الحاج، وشاعرنا من أبناء القرن الثامن عشر الميلادي، ويقطن بعض من أفراد قبيلته صحراء موريتانيا في النعمة وولاته، والبعض الآخر يسكن مدينة كندام، التي تقع إلى الغرب من مدينة تنبكت، وتبعد عنها بحوالى خمسين كيلومتراً، وتبعد عن قرية لير، أول منطقة حدودية بين مالي وموريتانيا بحوالى أربعين كيلومتراً.

وشاعرنا اشتغل مدرساً للقرآن الكريم واللغة العربية، فكان يدرس طلابه علم النحو، في قلب جامعة الصحراء وهي عبارة عن صيحة مبنية بأوتاد وشجر الطلح، الثابتة وفيها أدوات الشاي، من الطبل، والراد، والمجمار، والكؤوس يفوح برائحته الجذابة، والمدرس يدرس المبتدأ والخبر إلخ.

والقصيدة، التي اخترنا لكم منها بعض الأبيات، تحتوي على مائتين وتسعة أبيات:

من بحر الكامل

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

أم هلْ صرفتُ إلى السلامةِ همَّتي ... أم سرتُ عن شَمسِ الوَغَى أظلالِهَا[1]

أم هل عَدلت إلى الغنائم في الوغَى ... عزّ وهجها أم حِرتُ عن أهوالِهَا[2]

أم هل عَفَفْت وكان ذاك سجيّتي ... عند النّهابِ حَرامِهَا وحلالِها

وعصابةٍ تَغْشى الْخَنا عَنْفتُهَا ... وزَجرتها عن غيّها وضَلالِهَا

وكتائبٍ شعث عوابسَ بُسّلٍ ... ألبَسْتُهَا بِكَتائب أمثالِهَا[3]

ولكم وضَوّدَت الخَيلَ عن أهوائها ... ودماؤهُنّ تَغُورُ من أكفالِهَا[4]

وطعنتُ فارسَها المدجّجَ طَعْنَةً ... صاحت حلائلهُ لِوسْعِ مجالِهَا[5]

وَتَركتُ آخرَ بعده مُتجدلاً ... تمكُو فَرائصُهُ لهتك وصَالِها[6]

وفتحتُ ثالثهُ المنَازلَ ضربةً ... أوصت حليلتُهُ بشدّ خِلالِهَا[7]

---

(1) اظلالها: مجرور بإلى محذوفة.

(2) الوهج: لهيب النار، وحرت بمعنى تحولت عنها إلى مكان آخر.

(3) الكتائب: جمع كتيبة، كتيبة من الجيش، كتيبة من الفرسان، وهي تنظيم عسكري. كتيبة وفصيل الخ... وشعث: جمع أشعث: المغبر الرأس، والذي يظهر عليه عناء السفر، والعوابس: هو القطوب، يقولون إنسان عبوس وقطب الجبين.

(4) تفور في أكفالها: تجري في إعجازها، وهو تعبير عن شدة المعركة.

(5) يفتخر شاعرنا بأنه سدد ضربة قاصمة إلى فارسهم، الذي يحمل أسلحة متعددة، ومنها الرمح والسيف والخنجر. واستطاع بشجاعته القضاء عليه حتى إن زوجته صرخت وبكت زوجها لوسع تلك الطعنة التي لا علاج لها إلا الموت المحقق.

(6) متجدلاً: ساقطاً، صريعاً، من الضربة، وتمكو بمعنى تصفرّ، والفريصة ما بين الكتف والضلوع.

(7) الخلال: ما خلّ به الثوب يصنع من العيدان والحديد أو الذهب ويستخدمه نساء الصحراء ويعتبر جزءاً من الأدوات التي تتزين بها المرأة الصحراوية بل تشترطه العروس عند زواجها. =

والـحـرب تـعـلـم والـمـشـاهِـدُ أنـنـي مـردِي فـوارِسُـهَـا قـريـعُ نِـزَالِـهَـا[1]
ولـكـم غَـدَوتُ أمـام قـومـي غـازيـاً نـحـو الْـعَـدا متـهَـيِـئـاً لِـقـتَـالِـهَـا[2]
ولـقـد نـشرتُ كِـنـانِـتـي وَبـلـوتُـهَـا وَرَمْـيـتـهـمُ مـنـهـا بُـصـلـبِ نِـبَـالِـهَـا[3]
سُـمـر الـسـهـام مُـراشـةِ أغـراضُـهَـا لـبـبُ الأعـادِي عُـرضَـةٌ لِـنـصَـالِـهَـا[4]
شُـعـث عـلـى خُـوص حـنـايـا ضُـمَّـر مـثـل الـقَـسِـيِّ قِـلاَصِـهَـا وجـمـالـهَـا[5]
يَـطـوي الـمـهـامِـه نـصُّـهـا وذَمِـيـلُـهَـا ودؤوبُ مُـرقِـلـهَـا عـلـى إرقـالِـهَـا[6]

= يقول ضربته ضربة أوصت زوجته بشد الخلال من شدة هول الضربة حتى أنها أوصت من بجانبها أن يشد رواءها بالخلال لأنها قد تفقد أعصابها حزناً على زوجها.

(1) يفتخر الشاعر ببطولته، فساحات الوغى تعرفه جيداً بالإقدام ومقارعة الأبطال ومنازلتهم والانتصار عليهم.

(2) أمام قومي، لقد أصبحت القائد الذي يتقدم صفوف الجيش لغزو الأعداء بكامل استعدادي.

(3) نثرت كنانتي / الكنانة: ما يجعل فيه السهام وهو الجعب. يقول استخرجت ما فيها من السهام وبلوتها: اختبرتها، والنبال جمع نبل: وهو السهم.

(4) السمر: التي تضرب حمرتها إلى السواد، مراشة: جعل لها ريش، فالسهم الفتاك الذي تكون ضربته قاتلة ما يكون مقدمه على شكل إشارة زائد فعندما يدخل في جسم الإنسان من الصعب إخراجه، والأغراض بمعنى الأصداف، واللبب: جمع لبت وهي النحر، والنصال جمع نصل.

(5) شعث: الذي يظهر عليه عناء السفر، والخوص: الغائرة الأعين من طول السفر، والحنايا: جمع حنية: وهي التي انحنت من قسوة السفر، والضمر جمع ضمائر: وهو البعير الذي قطع مسافات طوالاً: يقال ضامر، ويقول رب العزة ﴿بسم الله الرحمن الرحيم وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر من كل فج عميق﴾ صدق الله العظيم(سورة الحج/27) والقلاص جمع قلوص: الفتي من الابل يقول: تلك السهام الصلب التي رميت بها العدو وهم رجال شعث على خوص قد أهزلها السفر وفي هذا البيت افتخار برجاله الأشداء الذين يتحملون قطع المسافات الطوال دون كلل لتحقيق أهدافهم المرجوة منهم.

(6) المهامه: المفاوز والنص والذميل نوعان من سير الإبل، والأرقال: الإسراع، والدؤوب: الجد والمثابرة. وهنا الشاعر وكأنه يقول اخترنا لهذا اللقاء نوعاً من الإبل تمتاز عن غيرها بسرعتها ولربما قصد بذلك ما يُعرف بالمهري وهو صنف من أصناف الإبل، يمتاز بالسرعة الفائقة والمهري أنواع: منه من يقطع أكثر من ذلك بكثير. وقصة تفاوت قطع المسافات كنت قد سمعتها من والدي رحمه الله منذ كنت طفلاً، ووالدي من عشاق الفروسية. فكان يقص لي=

تَفرى بهمَ وَعرَ الجبَالِ كأنَّهَا ... وسط الجبَالِ تَجوبُ وعثَ رمَالِهَا(1)
ولدى الرمال كأنها بَصَحاصح ... ولَدَى الصَّحاصح كالنَّعامِ وَرَالِهَا(2)
بُسلُ مساعر للحُروب عوابسٌ ... صُبر على مِحنِ الوغَى ومَجالِهَا(3)
ثاروا لأخذِ الثَّأرِ حين ندبتهُم ... مِثْلَ الأسودِ عَذابِهَا ومِحالِهَا(4)
يمشون في سدف الدياجي في ندى ... شبم وصرّ باردٍ لِنصَالِهَا(5)
لا ينثنُون عن الأعادِي رهبةً ... حتى تناخَ رُكابهُم بحلالِهَا(6)
جاسُوا خلالَ حلالهم حتى إذا ... لاحت ذُكاءُ على رُبى أحوَالِهَا(7)
شنُّوا عليهم غارةً شعواءَ ما ... تركوُا بها هُبعاً على بُهَّالِهَا(8)

= عن الفروسية وصفات الفارس والخيل وأنواعها وأماراتها إلخ. ومن بين قصصه التي ما زالت عالقة في مخيلتي إلى اليوم أنواع: من المهارة، وهي فصيلة من فصائل الابل. تتفاوت سرعة المهري من واحد إلى آخر فالمهري الذي يولد ويبقى باركاً على الأرض يومين أفضل من الذي يمكث في الأرض يوماً، ومن يمكث أربعة أيام أفضل من الذي يمكث ثلاثة. وهكذا فكلما ما بقي فترة على الأرض بعد ولادته أفضل من غيره الذي يقوم في حينه. وأكثر من يعرف هذه المسألة سكان الصحراء وخاصة التوارق.

(1) تفري: تشق، والوعر المكان الصلب أي الصعب اختراقه، والوعث ضده.

(2) والصحاصح: جمع صحصح وصحصحان: المستوي من الأرض، تجوب: تقطع والرال: ولد النعام يقول: تشق بهم وعر الجبال، فكأنها حينئذ تجري في الرمال وكأنه يقول إن خيلهم قادرة على شق الجبال الصعبة والرمال العاتية وشبهها بفراخ النعام في سرعة عدوها فشاعر الصحراء يلتقط كلماته من الطبيعة المحيطة به.

(3) مساعر للحروب جمع مسعر: الموقد كأنه الحرب توقد.

(4) ثاروا: نهضو، ندبتهم: استنجدتهم مثل الضرغام، وعذابها ومحالها بدل اشتمال من الأسود، والمحال: الكيد والمكر والخديعة والجدال والقدرة والقوة والشدة.

(5) السدف: الظلمة، والدياجي جمع دجية الظلمة، دليلاً على الشجاعة والإقدام، والنصال الترامي بالنبال وغيرها من أدوات الحرب في تلك الفترة.

(6) لا ينثنون: لا ينصرفون حتى ينيخوا ركابهم بحلال العدو، والحلال جمع حلة الحي.

(7) جاسوا: وطأوا بشدة وذكاء.

(8) شنوا عليهم الغارة: صبّوها عليهم من كل وجه، وشعراء متفرقة أي بمعنى قوية.

تَركُوا ديارَ كُنانةٍ مَنهوجةً ... لِفرارِها عن آلِهَا في آلِهَا[1]

وحُماتُهمْ وكُماتُهم غَادرتُهمْ ... جزر السباعِ جلالِهَا وضئالِهَا[2]

عَاثت بهم غلبُ الضّباعِ وجرّرت ... أشلاءهمْ لوجَارِها وجَالِهَا[3]

ظلّت تَهَادَي الخامعاتُ لُحومَهُم ... تمشي جَعارِيهَا إلى خزعالِهَا[4]

ما نمتُ عن ثأري أُميمةُ في العِدا ... حتى شفيتُ النفسَ من بلبالِهَا[5]

فَسَلِي كُنَانة هل ثأرتُ بفِتيتي ... يومَ الوغى منها بخيرِ رجَالِهَا

أم هل أبحتُ حماهُم يوم الوغى ... وعركتهم عرك الرّحا بثفالِهَا[6]

يوماً تصبّبُ بالعبير دماؤهم ... سيلان زق قُطّعت بحبَالِهَا[7]

ظلّت تصبّبُ من نجيع سراتهم ... غيطانُ دُور مِن حِمَى أقيَالِهَا[8]

كم من كميّ قد تركت مجدلا ... بخلال عرصتها وبين تلالها[9]

---

(1) منهوجة: أي موطأة بالأقدام لفرارها أي كنانة عن الها عن اهلها في إلها في سرابها.

(2) وتركت حماتهم وكماتهم جزر السباع جلالها أي كبارها وضئالها: صغارها.

(3) عاثت: تعيث أكثر من الفساد والأشلاء، الأعضاء: جمع شلو، والوجار: سرب الضبع، والجال: جيال وهي الضباع. وكأنه يقول تركت قبيلته أشلاء أعدائها تنهشها سراب الضباع في الصحراء.

(4) تهادى: تتهادى، والخامعات: الضباع، والخزعال: بالفتح الضبع.

(5) يقول ما نامت له عين حتى أخذ بثأره وشفى غليل صدره من أعدائه، والبلبال: البرحاء والهم في الصدر.

(6) وعركتهم: طحنتهم، والرحا: الطاحونة، والثفال ما يفرش لها والبا بمعنى مع وهو يصور لنا صورة أعدائه فاستمد من الادوات التي تستعمل يومياً صوره البلاغية ليقرب لنا الصورة أكثر.

(7) العبير: أخلاط من الطيب أو الزعفران، والزق: بالكسر القربة. وهنا ينقل إلينا ما كان عليه أعداؤهم من هزيمة حتى إن دماءهم تسيل بقوة وكأنها قُرَب مملوءة بالماء وقطعت حبالها فاندفع منها الماء بغزارة وهو تشبيه بليغ مع رصانة في الكلمات.

(8) النجيع: الدم، والسراة: السادة جمع سري، والغيطان: جمع غائط وهو المستوي من الأرض، والأقيال جمع قيل الملك أو الملك دون الأعظم.

(9) الكمي: الشجاع، المسلح بالسلاح ومجدلاً: صريعاً، والتلال: جمع تل وهو المكان المرتفع.

وخريدةٍ حسناءَ بيَضَاً غادَةٍ — أبرزتها من خِدرِهَا وحِجالِهَا(1)

تبكي وتَندُب بَعْلَها وحَميمَهَا — وتَنُوحُ مُعولةً على أشبالِهَا(2)

وَقَديمةٍ سَلَبَ الجلالَ جَمالُهَا — غادَرْتُها تَحنُو على أطْفالِهَا(3)

تبكي وتسأل عن أخِيهَا وابنِهَا — حدباً وتَسألُ عن سُلالةِ خَالِهَا(4)

تدنُوا إليّ وتشتكي فيعُمُّهَا — رفدي قبيل تمامُها لسؤالِهَا(5)

وكَريمةٌ تأبى السُؤالَ لفضلِها — ومَصابُها تَشكُو إليّ بِحالِها

ويصُونُها عند السُؤالِ حيَاؤهَا — فَمنحتُها كَرماً كَرائمَ مَالِهَا

وحبوتُها فضلاً بفاخِرِ تالِدي — وَنَثَرتُ ذُخر حقائبي لعيَالِهَا(6)

ثمّ انثنيتُ وما احتملتُ مذمّةً — وشفيتُ صادي غُلّتي بعِلالِهَا(7)

وأنا الذي شَهِدت كُنانة بأسَه — وأنا المُعدُّ لِغَيظِهَا ونَكَالِهَا

كفّي وفكّي صارِمانِ كِلاهُمَا — أعددتُه لجِلادِهَا وجِدَالِهَا

مُوتُوا بغيظِكُم كُنانةُ إنني — أنا ذاكمُ مُردي العدا بتَبَالِهَا(8)

فَليبكينّ مع البواكي حاسِراً — بكاؤهنّ ويَجلسنّ بِخلالِهَا

أو ينفسن كَنفيسةٍ ونسائِهَا — إذ لم ينفسنَ من عَظيم وبالِهَا

لم يُغنِ عن فِتيانِهم في حَربهم — شيء ولا فتَياتِهم بِبِلالِهَا

وَلينزعنّ عن القَريضِ فَلم يَنل — بِفريضه إلّا سماجة قَالَهَا

* * *

(1) يقول: ورب خريدة حسناء سبيتها وأخرجتها من خدرها وجمالها.

(2) تبكي وتنوح على بعلها وقيمها أي قريبها، معولة: رافعة صوتها بالعويل والنواح، والأشبال: بمعنى أولادها.

(3) القديمة: المرأة المسنة والتي خلع عليها الزمن الجمال والحسن الذي كانت عليه في صباها، غادرتها بمعنى تركتها تحنو وتعطف على عيالها.

(4) حدباً: أي شفقة وتسأل عن أبناء خالها. والحدباء ما يحمل عليه الجثمان.

(5) ترنو إليّ وتشتكي حالها فيعمها عطائي قبل أن تكمل سؤالها.

(6) حبوتها بمعنى أعطيتها والتليد التالف التاريخ، التليد المنتهي منذ زمن بعيد.

(7) أثنيت انصرفت، والغلة العطش، والعلال جمع علل وهو الشرب بعد النهل.

(8) مردي العداء مهلكها والتّبال الهلاك.

وقال أيضاً:

من بحر البسيط

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

يَا هَاجِياً هاذياً بالِكذبِ مُفتخراً ... الكذبُ داجٍ ونُورُ الحقِّ قد ظهَرا[1]

ورونقُ الشعر كذبُ القولِ يَسلبهُ ... والصرفُ أحسنُ ما فاهتْ به الشُّعرا[2]

والفخر بالِكذب لا يُجدي وظُلمتُهُ ... من تحتها صُبح الحق قد ظهرا[3]

أتعبت نَفسك لا تنطق بها كذبٌ ... يهجو الكذُوب ويمحُو الحقُّ ما سَطرا[4]

يهجُو الكذُوبُ ولا تبدي مقالتُهُ ... إلا الذي من خِصالِ المجدِ قد سُترا[5]

رَكبت عُرياً إلى العَوْراء غيرك إذ ... عيّرت من فرّ منه العارُ واستتَرا[6]

---

(1) الهاجي المهاجي، والهاذي من الهذيان وهو يكثر من الكلام بدون أفعال. فكثير الكلام يقول الحكماء لا يشكل خطورة أما الذي يشتغل في صمت فهو الذي يحسب له ألف حساب. وعندنا مثل في ليبيا على من يتكلم بدون فائدة فيقولون: «كثير نباح الكلب على روحه» (نفسه)، والداج المظلم.

(2) الرونق الحسن ويقصد بذلك أن الكذب يسلب جمال الشعر وحسنه. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في شاعر الإسلام زهير بن أبي سلمى: «إنه أشعر الناس لأنه لا يمدح أحد إلا بما فيه».

(3) لا يجدي ليس له أي فائدة لأن ما بني على باطل فهو باطل.

(4) بما كذب أي بما هو كذب فكذب خبر لمبتدأ محذوف.

(5) يبين هنا أن هجاء الشاعر الذي عرف بقول الكذب لاقيمة لكلامه لأنه لا يصدقه الناس. ويشير هنا إلى قول أبي تمام:

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود

(6) ركبت عرياً أي بلا سلاح والعير بالفتح الحمار والعوراء لا تقال فهي تنم عن القبح، وشاعرنا رابع الشعراء الثلاثة الذين يحكي لنا أبو نصر المرزباني أن أحدهم شلشل والثاني سلسل والثالث قلقل، فالذي شلشل هو الأعشى إذ يقول: «فقد غدوت إلى الحانوت يتبعني شاد مثل شلول شلشل».

والثاني مسلم بن الوليد إذ يقول: «سلت وشلت ثم تسل سليلها: فأتى سليل سليلها مسلولاً». =

إخسأ فقولُكَ لا يُصغِ له أحدٌ فَالناسُ أجمعُ عنّا استحسنوا الخبرا[1]
سُحقاً لقومٍ جرى يوماً لشاعِرهم ما للقوانينِ في سِبَقِ الحصَانِ جَرى[2]
يُسدى القريض وما يجدِى القريضُ لمن جُنُودُهُ في البرى أضحوا شذراً مذرا[3]
تُهدى القريض وما تُهدى بِهِ حَسَناً إذ لو رأيتَ لما تَهدي به نفرا
هلّا مددتهمُ بجحفل لَجِب يضحى به جُندُكَ المغلُوبُ منتصراً[4]
جهلت قومك فاستسمنت ذوارمٍ خِلْتَ السرابَ شراباً والنُّوى ثمرا[5]
إن كنت تحسبهم خيلاً فَصِل بهمُ إلى جمانا تَجِدْهمْ إذاً حُمرا
أربع بنفسك لا يغررك قولهُمُ وإن تقل بارد أدل يديك ترى[6]
ما أنت أول مغرُور بكذبهمُ غروُا به ناصراً فخلفُوهُ وَرَا[7]
دُعوا بني ناصرٍ لنصرهم فأتوا مُبادرين وعنهم أزمعوا سفرا
دَعَوا الحربُ وحين الحربُ بَالَ حِما رُهَا الدماء تولّوا عنهُمُ زُمَرَا
عَدُّوا الفرار فخاراً والنّجا هرباً وما الفَرارُ بلاقي عنهمُ القَدَرَا
لو كان يُنجي الفَرارُ من قضاً لغدا مَن مات من عطشٍ منهمُ كمن صدرا
أوكان يُنجي الفرارُ هارباً لنجا مَن فَرَّ عن قومه منهمْ ومَن نفرا

= والثالث المتنبي إذ يقول:

فقلقلت بالهم الذي قلقل الحشاء قلاقل عيسى طهن قلاقل

(1) إخسأ: في الأصل زجر الكلب لا يصغي لا يستمع.

(2) القوانين قبيلة من الحسانين. كانت لها صولات وجولات في ميادين الوغى.

(3) البرى الأرض، وشذر مذر متفرقين في مختلف الاتجاهات.

(4) الجحفل: الجيش الكثير العدد، والجلب كثير الأصوات.

(5) استسمنت ذوارم مثل اعتقدت المتورم سميناً، والسراب ما يتراءى في القيعان عند اشتداد الحر ويحسبه الظمآن ماء، والنوى عجم التمر.

(6) وإن تقل مثل حساني، يضرب المثل لمن يستهون الصعب اذا لم يمارسه فيقال إن ظننته بارداً فاجعل يدك فيه.

(7) ناصر، رجل استنجدوه في إحدى معاركهم فأنجدهم، وحين حميت المعركة فروا عنه وبقي في ميدان القتال يقارع الأعداء وحده.

حُبُّ السلامةِ قد يُرني إلى عَطبٍ ... والعَارُ مَن كان بالأيّام مستترا
حُبُّ السلامة لو يُنجِي لكان نجا ... من بالبسيقي بالحفير قد حَضَرا(1)
قد عمّقُوا حُفَرُهُم ليَسْلمُوا فَغَدُوا ... كالكبش عن حتْفِه بِظِلْفِهِ حفرا
وما نجوا يوم لكبنيب إذ هربُوا ... عشيّةً والسماء أرسَلَتْ مطرا(2)
لقد تَرَكْنَاهُم صَرْعَى تخالُهُمُ ... نخلاً تراه بمجرى السّيلِ منقعرا(3)
فتلِك دُوُرُهم بالظلم خَاويةً ... فأصبحُوا لا ترى بها لهُم أثرا(4)
كم غادةٍ منهمُ تشوي الجراد لدى ... كُنّار تسري إلى أوكاره سَحَرا(5)
وكم فُوتة من ثكلى وأرملةٍ ... وأيِّم ويتامى عالة فُقرا(6)
غذاؤُها حُمُر الغاباتِ تحنذُها ... جُوعاً وفي الكبجّ تستسقي لها المطرا(7)
إنّا بني الحاج أبطالٌ ذوُو كَرَمٍ ... نَحْنُ الهُدَاةُ الكُماة السادةُ الأُمرَا
مَهما نُسالِمك تعلُ النّجم مُبتَهِجاً ... وإن نعادِك يوماً تُلْفَ مُنحدِرَا
أيان تُؤمِنْكَ تأمن غيرنا وإذا ... لم تَجِدِ الأمن منّا لم تزل حَذِرَا
من ذا يُساوي بنَا أعداؤنا كرماً ... فَهَل تُساوِي بِخَيْلٍ سُبَّق بقرا(8)
من ظنّ أنا سوّاءُ جاهلاً فلقد ... ساوى بنخل القرى اليتّوع والعشرا(9)

---

(1) البسيقي، بئر جرت به معركة بينهم وبين كنت وكان النصر حليف بني الحاج. وقد حفرت حول الحي خندقاً في ذلك اليوم حتى تحمي به مواطنيها ولكن دون جدوى. وحدث ما حدث.

(2) لكبنيب، مكان حدثت فيه موقعة بين كنت وخصمها.

(3) منقعراً: ساقطاً منجدلاً.

(4) دليل على سحقهم بالكامل.

(5) كنّار: قبيلة من قبائل الفلان المنتشرة من موريتانيا إلى تشاد والتي يبلغ تعدادها حوالى17 مليون نسمة وترجع أصولهم إلى جيش عقبة بن نافع الفهري.

(6) فوته: هي فوته جالون، وهي سلسلة من الجبال بمنطقة السنغال.

(7) تحنذها: تشويها، والكبج: موضع بالسودان الغربي.

(8) الفراء: بكسر الفاء الحمار.

(9) هنا افتخار بالقبيلة، وجاء بمقارنات وقال: كيف يساوى الأسد بالذئب، فكأنه يقول شتان بين الثرى والثريّا.

ومن يُساوِ بنا أعداءنا فلقد ساوى بأسد الشرى الذئاب والنمرا[1]
فسل بنا وبهم إن كُنتَ جاهلنا والحالُ أصدقُ ما استنبأتهُ الخبرا
همُ يُعادُونَ أهل الحقِّ عن سفهٍ ونحن ننصرُ من للحقِّ قد نصرا
ونحنُ نزجر للعاصِي ونهجُرُهُ وهمُ يُجلُّون من بالفسِق قد جهرا
يَرضَونَ جهل أبي جهل ونخوتهُ ويُبغِضُون علياً من علا مُضَرا
وَبغض آلِ النبيّ المصطفى وَرِثُوا مِن الوليد ومِن يزيدَ مَن فَجرا
وبُغضُ أنصارِ خيرِ الخلقِ شيمتُهُم وَسَم النِّفاقِ على أخلاقهم ظهراً
قومٌ إذا ائتُمِنُوا خانُوا وإن حَكَمُوا جارُوا وإن خاصَمُوا ألفيتُهم فُجُرا[2]
أو واعَدُوا أخلَفُوا أو حدَّثُوا كذَّبُوا وَمنَ تقلَّدَ عهداً منهمُ غدرَا[3]
مثلُ اليهود بقتل الانبيا هلكُوا لأنهُم قد رضُوا بَزلة الكَبرا[4]
ألا فلا أمّةٌ بالذَّنب قد هَلَكَت إلَّا ويأتُون ما أتتهُ مُشتَهِرا
ثمُودُ قد هَلَكوُا عن بغيٍ عاقرِهم وهُم عتوا وعتَوا وكلُّهُم عقَرا
نُهاهمُ صالحٌ فخالفُوه كما نهى ثمُودَ وكانُوا معشراً فُجُرا
وقومُ لُوطٍ أتوا ما قد أتوا سفَهاً وهُم يُساوُون ذات البعل والذّكرا
ويقطعُون السَّبيل أينَما سلكُوا جهراً ويأتُونَ في ناديهمُ نُكُرا
وأهلُ مدينَ للمكيال قد نقصوا وكُنتَ قد نقصُوا أرزاق كُل وَرَى
وينقُصون عُهُودَ اللَّهِ قاطِبةً وَينقُصون من الإسلام كُلّ عُرَى
هذا وفيهم رجالٌ مؤمنُون كَمَا في آلِ فرعَونَ مَن إيمانُه سترا

---

(1) الشرى: موضع تكثر به الأسود.

(2) (3) (4) يقول شاعرنا إنهم مثل اليهود الذين ضربت عليهم الذلة والمسكنة بسبب قتلهم للأنبياء لأنهم قد رضوا بما فعل آباؤهم من تلك الأفعال الخسيسة من غدر وخيانة. واليهود مجبولون على مثل هذه الأفعال الدنيئة.

الفصل الثالث

الصراعات القبلية شعراً

الصراعات القبلية
في الشعر

فرضت قساوة الصحراء على سكانها التكتل، والقبلية، والأحلاف، وهو طابعها العام والمميِّز لها، فنجد كل قبيلة تتحالف مع الأخرى وتشترك معها في الماء والكلأ، وتنهض كل واحدة منهما لنجدة الأخرى، إذا ما تعرضت لخطر داهم. وعادة ما يكون النزاع بين أفراد القبائل على الماء، والكلأ، أو إذا تعرض أحد أفراد القبيلة لأي اعتداء من قبيلة أخرى، وقد تنشأ بينهم حُروب تطول، أو تقصر، ولكن عادة ما تتدخل أطراف أخرى للإصلاح بينهم، وتتبادل القبيلتان سيلاً من الشتائم، وتذكر كل قبيلة ما كانت عليه الأخرى من أعمال مشينة، لا تليق بمكانتها، وتصغرها في نظر القبائل الأخرى. والمعبِّر عن آراء القبيلة هو مذيع الصحراء ورجل الإعلام الشاعر الصحراوي.

وهذا اللون الذي نقدمه يعكس صراعاً بين قبيلة كنتة وقبيلة كلنتصر. وكان هذا الصراع في أوائل القرن العشرين بحيث كان بعض من قبيلة كنتة يقطن تغارست والبعض الآخر على نهر النيجر، وجزء ثالث منها حول الآبار من الناحية الشمالية.

إن قبيلة كلنتصر موطنها بلدة قندام، التي تقع إلى الغرب من مدينة

تنبكت وتبعد عنها بحوالى خمسين كيلومتراً وقد زرتها عام 1985 م.

أسباب الصراع:

يُقال أن فتى من قبيلة كنتة، سافر إلى قندام، فصادف الفتى الكنتي رعاة من كلنتصر، وطلب منهم شاة ليأكلها، فرفضوا طلبه وحاول أخذها بالقوة، فما كان من الرعاة إلّا أن أوسعوه ضرباً، وعندما سمع أهل قبيلة كنته الخبر، عدوا ذلك إهانةً لهم، فما كان منهم إلّا أن نهضوا لقتل الرعاة وأدركوهم على بئر يقال له (أنجبا) فقتلوا بعضهم وفر الآخرون، وعندما تناهت الأخبار إلى مسامع قبيلة كلنتصر وما تعرض له رعاتهم جمعوا أحلافهم من القبائل وتوجهوا صوب مضارب قبيلة كنتة، للانتقام، والتقى الجمعان في موضع يدعى (تغاوغوين) ودارت معركة حامية الوطيس، كان النصر فيها حليف قبيلة كلنتصر، وقتل في هذه المعركة أميركنته وقائد جيشها، وغنم كلنتصر غنائم كثيرة، إلّا أن نار الهزيمة ازدادت اشتعالاً في قلب قبيلة كنتة فبينما كانت قبيلة كلنتصر راجعة بعد المعركة لحقت بهم قبيلة كنتة في بلدة (أنبكسا) وتجددت الحرب بينهما فانتصرت قبيلة كلنتصر للمرة الثانية على كنته.

وكانت تغذي هذه الحرب النعرات والعصبية القبلية، والمنتصر في هذه الحروب مهزوم، فبدلاً من أن يوجهوا أسلحتهم إلى صدر المستعمر أخذوا يوجهونها إلى بعضهم البعض، وبدلاً من أن يتغنوا بأمجادهم التليدة الزاهرة أخذوا يتقاتلون متعللين بأتفه الأسباب. فهذا أحمد البكاي بن محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي والمتوفى عام 1865م بمدينة (ساردين) ينظم قصيدة طويلة يهجو فيها كلنتصر نوردها كنموذج من نماذج الهجاء الذي كان منتشراً في جنوب الصحراء فيقول:

من بحر البسيط:

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

كُفوا عن الحرب لسثم أهلَها أبني ... جالوت والتزمُوا الأحراث والبقرَا
إنّا رجال بني الكُنتي صَولتُنا ... في الحرب والضّربِ لا تُبقي لكم أثرَا
نصُدُّ عنكُم إذا تُؤذُوا ونترُكُكُم ... على أذالم ولم نذكُر لكُم خبَرَا
وَنستليين لكُم واللينُ شِيمتُنا ... لِغير من يبتغي لَنَا بِه الخَوَرا[1]
ونأنف السّب سبُكُم وذمُّكُمُ ... ولم نُبالِ بِمَن جفا ومَن هَجَرا
ومن أقام على صداقةٍ ومن اعـ ... ـتَدَى ومن برّ في الأقوالِ أو فَجرا
حتى إذا مارَ شحم بين أضلُعِكُم ... وغرّكُم تركُنا إياكُم غَرَرَا[2]
قَاتلتُمُونا بلا جُرم مُكابرةً ... على العزيز الكريم الخالق الصُّوَرَا
وبعد قتلِكُم لمنع قاتِلِنا ... وحربنا دُونهُ تمالت الكبَرا
كَفَى من الهُونِ أن تبوأ بصاحبنا ... عشرين منكم كراماً عندكُم غُرَرَا[3]
فلَم تُقيمُوا حُدُود اللّه في حدثٍ ... عمت نوائبُه الأهلينا والنُّظرا
ولم تلينُوا بقولٍ كان أو عملٍ ... ولم تَميلُوا فتطفُوا الشرّ والشّررا
لما أبيتُم وجدتُم غبّ قتلكمُ ... قتلاً ذريعاً يُذيقُ الظّالَم الصّبِرا[4]
ذُدناكُم من دياركُم نتبَعُها ... داراً فداراً فمرعى ناعماً نِضّرا
نُسوقكُم بأعاليها وأسفَلِهَا ... سَوق النّعام يُساقى السّهل والوعرَا
نُطارد الجمعَ والفريدَ مُنفراً ... نفي الضراغِم من أوجارهَا...
حتّى بلغنا بكم تنبكت أرضُكُم ... وبيس بنك عراتاً جُوّعاً فُقرا[5]

---

(1) الخور: الضّعف.

(2) مار: تحرك، وهو كناية عن التجبر.

(3) قوله تبوّا بصاحبنا المعروف باء فلان بدم فلان قُتل به الغرر الأشراف.

(4) نعت الصبر بعصارة شجر مر، وقيل «الصبر مفتاح الفرج».

(5) بيس بنك: دشرة إلى الشرق من تنبكت، شهدت منازعات بين قبيلة كلنتصر وكنتة.

وطبلكنكُ وبنتكذل بلدته   أمست خلاء فلم نبق بها أثرا(1)

وساحلُ البحر لم نترك بساحته   من الثعابين لا سمعاً ولا بصرا

وجُزتُم عامِدَي فرشٍ معاقِلكُم   ورأس ماءكسر لتُنفرُ والنفرا(2)

لما استقرت بفرشكُم مجالسُكُم   وخلتُم يُبطئنا في جنبنا حذرا

إذا بخيلي عليها الأسدُ غاشيةً   من جانب الغربِ لن تُبقي ولنْ تَذَرا(3)

تُرخي أعنّتها للموت خائضةً   بحر المنيةِ لا تخشى بها ضَرَرا(4)

أطفالُ صدق تربّت من أكابرها   في المجد لا ترتضي لمجدها الغيرا(5)

توارثتهُ من الأجداد ليس لها   جدٌّ هزيلٌ ولا من يتبعُ البقرا(6)

ولا جبانٌ ولا نذلٌ ولا بخِلٌ   ينحطُ عن فُتى العلياءِ منكسِرا

فبددت كلغزّافي وشيعتهم   وصُيرُوا شذراً بأرضهم مذرا

وإيكتاون ومن والاهُم نهبت   أموالُهم زُمرٌ أكرم بها زُمَرا

من جانب الحوضِ منازلها كرمٌ   يَوم الرخا وعن الأقران لم تُحتسرا

جاءت تدافع بالأيدي بنادق في   أجوافها من صَنيع الرُوم وما نضرا

على جيادٍ مُحسناتٍ مُسومةٍ   مثل الخذاريفِ ترمى الفارس الخطرا

فلم يقم لوجُوهها ووجهتها   من نجل جالُوت إلا جاء مُنتشرا

فبعد يوميْنِ أو ثلاثةِ رجعت   وألبستُكم وراها الشمس والقمرا

وخلفتكُم رعاعاً لا غناءِ لكُم   سوى رعاية ما استطار وانتشرا

وجاءت الخيل نحو الشرق تركلُها   بني الوُجوهِ حسان الهيئة الأمرا

تحذُو بجيش به الأبطال نائحة   نوح الثكالى تباري الشادي الضجرا(7)

---

(1) طبلكنك وبنتكذل: قرية صغيرة إلى الشرق من تنبكت، جرت فيها معارك بين كلنتصر وكنته.

(2) فرش: جبل بين تنبكت وقندام مررت به. أما رأس الماء فهو مكان شمال بلدة قندام.

(3) (4) يحذر أعداءه ويفتخر في آن واحد من أن فرسانهم كالأسود على جيادهم العربية الأصيلة تقدم عليكم من ناحية الغرب تفني أولكم وآخركم.

(5) يذكر الشاعر أعداءه على أنهم تربوا على الصدق والإباء ولا يرضوا بالظلم وإن طال الزمن.

(6) هذا البيت أراد به الشاعر تصغير خصمه.

(7) الشادي: المغني.

فبددتكم كفعل الأولين ولم … تلوِ على غير مَنْ مِنْ جمعكم حُشرا
فقتلت بخيامكم صدوركم … والمال أبقت لمن... ظفرا
وصيّرتكم بها هلكى كأنكم … أعجازُ نخل أثيلِ النبتِ منقعرا
وحملت بَعدُ بالطبول أبعرة … ثلاثةً وأبت أن تنتيف الشعرا
لما تولت وما استقصى أخو كرم … والحرُّ لا يعلق الأدران والغمرا
ففوتموهُم بأضعافٍ مُضاعفة … وقد تقلّل من مجموعهم كُثرا
من بعدما اقتسمُوا منكُم غنائمهمُ … وأيقنوا أنكم لم تقتفُوا أثرا
إذا بكُم تلقطوُن كل مُنخزلٍ … عن السوادِ ضعيف القلب مُنْشترا
فتقتلوهُ وقد ريعت أوائلكمُ … وجيشنا صدرُه قد حلّى الخمْرا
فانحاز آخرهُ وارتدَّ أولُهُ … فانفلّ عسكركمْ بالذُّل مُختمرا
فلم تفيئوا إلى صدرٍ ولا ذنب … كأنّكمْ ترفُضُون خلفكُم بعرا
غارات حقٍ من الرحمن ليس لها … إلّا اللجاءُ وأنتم للّجا حُفرا
فَقتلت منكم سبعون مع مائةٍ … بغير مَنْ بالبراري ساقطاً نثرا
وتابعتكم رجالُنا تُطاردكُمْ … رجال صدقٍ يوم الوغى صُبُرا
حتى جلوكم وقبلُ غير واحدةٍ … جلوكُم عنكُم بقهر من قهرا
عن العذارى وأموالٌ منعمةٍ … تطمو بكثرتها الأحجار والشجرا
هذا وأنتم كمثل الشاةِ تتبعُ ما … من السباع تولّى هارباً حذرا
.........نعجل بقتلكُم … إذ لستُم كلكُم أكفاءَ من غُدِرا(1)
هل تستوي ألفُ عيرٍ في مزابلها … مع ضيغمٍ صيتُهُ استنار وانتشرا(2)
أم هل يُوازى بعبد السوءِ في ملأ … مُهذبٌ عن صُدُور الناسِ قد صدرا
فذاء ديّته تربُو على مائةٍ … وذاكم يعدُّ في استقائه عشرا
لولا القصاصُ الذي في التّور جاء كما … قُلنا ابعثوا عشرة فِدًى لمن ثئرا

---

(1)

(2) الصيت بالكسر: الشهرة والذكر الحسن.

فقال منها لكم للحمق قائلكم — وقد قضى اللّه في الأُمور ما قدرا
واللّه لا نفتدي بعيننا بشراً — لو كان في عزّه وملكه عُمرا
فاستكبرت قومكُم عن حق مالككُم — قفوا لإبليس من بربهِ كَفَرَا
ونحن نخوتنا قد رضَّ قسوتها — شرع العزيز فما أبقى لها وضرا[1]
دليلُ ذاك تعافينا وجرأتكُم — ونحن أحرى بأن نباي وأن نترا[2]
قطعتُم الشبل بعد القتلِ وانتشرت — رياحُ ظلمكم فأثرت أثرا
ففرّقت فرقة منكم أراجسها — والقائد أنكَنّ في الأجلاف مستترا[3]
بإثر خمسٍ وعشر قومُنا نهبت — من قومكم قطعةً تشفى بها الوحرا
فبعد خمسة أيام تُطالبُها — أو شيعها نكصت عَدو الظليم ورا[4]
تذكّرت بعدما قلّت مآكلُها — طعم المخيض فشدت نحوه الأُزرا
كَفِعل ذئب الغضا لم يترك بلداً — له به شبعٌ يَقضي به الوطرا
فلم نبالِ ولم نعبأ بجيشكُم — إذ أنتمُ ضعفاً في جليةِ الأُمَرا
قد غرّكم تنكر يكفّ وشيعتُهُم — إذ يكذبون عليكُم بيْنكم محُضرا[5]
أنكم أنتم الذين قد نصروا — نبيّنا حاش من به النبي نُصرا
وأضحكت قومكم فيكم برابشكُم — أعداءكم خفيةً والحقُ قد ظهرا[6]

---

(1) الوضر: الوسخ.

(2) يباي نفخر، ونتر: نطلب الوكر.

(3) أنكن: اسم تارقي، وهو بطل من أبطال وقائد من قواد قبيلة كلنتصر قارع الفرنسيين في كثير من المواقع وألحق بهم هزائم نكراء شهد له بها الأعداء قبل الأصدقاء إلّا أن يدي الاستعمار طويلة فقتل بخيانة بعض من أبناء جلدته المتعاونين مع المستعمر. والأجلاف جمع جلف وهو غليظ القلب.

(4) شيعها: قربها، ونكصت: رجعت وتقهقرت.

(5) تنكريكف: قبيلة من قبائل توارق عرب الصحراء الكبرى. من أبناء أولاد آلاد، وقبائل التوارق ينقسمون بداخلهم إلى عدة أفخاذ من بينهم فخذ آلاد، وهم أبناء عمومة توارق مدينة غات بليبيا.

(6) البرابيش: مجموعة قبائل ائتلافها سياسي تضم أكثر من عشرين فخذاً من بينها فخذ أولاد =

حتى جعلتمْ كُيُودكُم وجدكُم فينا كُنانة لا جحداً ولا نكُراً
فمن أراد لها الدمار دمَّره رب السموات تدميراً كما سطرا
سلطتم بذُنوبنا وغفلتنا على حمانا كلاباً تأكل العذرا
فلن نفارقكم حتى تلين لنا منكم رقاب تحاكي الصخر والحجرا
حتى تفُوا وتدوا من البرابش من صيرتُم دمهُم بظلمكمُ هَدَرا
قتلتُم أربعين من كماتهم ونحن أجْدَر مَن يُطالب الوترا
لأننا وهم كمثلِ جارحةٍ متى اشتكى بعضها فبعضها نفرا
ثم الصلاة على المختار من مضر ....[1]
وآله ثم صحبٍ تابعُوه على حقٍ فما عدموا الأعوان والنُصرا

* * *

= سليمان والعلاونة وأولاد ناصر والرحامنة. وهذه الأفخاذ لها امتدادات في ليبيا. ويختص فخذ أولاد سليمان في البرابيش بالزعامة والعلم، وكانت ولا تزال لقبيلة البرابيش المكانة المرموقة في جنوب الصحراء ولا يمكن لأي امبراطورية أن تقوم لها قائمة ما لم تكسب ودّ البرابيش. وقد ساندت قبيلة البرابيش الملك سني علي امبراطورية سنغاي والتي تمتد من موريتانيا إلى نيجيريا في حروبه ضد المتمردين وفي فتوحاته للقبائل الوثنية. وسني علي يرجع أصله من أسرة ليبية نزحت من طرابلس الغرب وهي أسرة ضياء ونشرت الإسلام في تلك البقاع وأعجب أهالي البلاد بمكانة وأخلاق هذه الأسرة ونصَّبوا أحد أبنائها حاكماً عليهم، هو سني علي، وسني بمعنى حامي السنة.

(1) غير مقروءة في المخطوط

وقال أيضاً، يجيب أحمد سالم بن السالك اللمتوني قصيدته التي يقول فيها:

أرقت لبرق العارض المتهلل عيناك فاتهمتا بدمع مسبل

بهذه القصيدة.

بحر الكامل

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

طرقت نفيسة والدجى لم ينجل وسنان من طول السرى في الهوجل[1]
باتت يمثلها لعيني طيفها فأرقت لا للعارض المتهلل[2]
غيداء كُنتاوية أموية قُرشية ومن الطراز الأوّلِ[3]
لا من يعيش ولا دولحاجية عجماء لم تنبل ولم تتنبّل[4]
لكن من الكنتي ينميها أبٌ فأب إلى عدنان غير مُغفّل
ذمٌ على مَن يبتغيه وِصالُها بالقرب كانت أم بأرض الموصلِ[5]
فخر الفتى في وَصْلها لو نَالَه لكن لعزة وصلها لم توصل

(1) الدجى: جمع دجية الظلمة، والوسنان: النائم، والهوجل: المغارة البعيدة لا علم بها.

(2) الطيف: الخيال.

(3) الغيداء: المتثنية ليناً.

(4) يعيش: قبيلة من الحسانيين، ودولحاج: قبيلة أحمد سالم بن السالك، ولم تنبل: لم تكن نبيلة ولم تتنبّل: لم تتكلف النبل والنبل النجابة.

(5) الموصل: مدينة بالعراق.

الفصل الرابع

شعر الرثاء

الرثاء

الصحراء دائماً يتفاعل بأحاسيسه ومشاعره مع الواقع المحيط به. فالرثاء لون من ألوان الشعر، عبَّر به الشعراء عن عواطفهم، فشاعر الصحراء مرهف الإحساس رغم أنه يعيش في بيئة بالغة القسوة.

وهذه القصيدة التي بين أيدينا للشاعر سيدي عالي التنبكتي، يرثي فيها صديقه يحيى الونكري الذي فارقه، وكأنه يقول بأن الموت سرق أغلى صديق، وهو يخاطب الحاضرين ويعظهم في نفس الوقت، بأن الدنيا دار فناء، والآخرة دار بقاء، وأن الذي يسير في الدنيا دون أن يلتفت للآخرة فإنه من الذين طمس اللّه على قلوبهم. ويرثي صديقه الونكري ويعدِّد شمائله، وعلمه، الذي نفع به العباد، ويخاطبه بعبارة صريحة بأن الأنام كلهم يشهدون لك بالتقوى والعلم. ومن شدة لوعته عليه يقول له: حُزْتَ الشهادة، ومن المَرْضيّ عنهم لأن شيخهم التجاني راضٍ عنه. ومن هنا ندرك أن الشاعر والمَرْثيّ من أصحاب الطريقة التجانية المنتشرة في السودان الغربي.

ويختتم حديثه بالصلاة على رسول اللّه «صلعم».

فالفقيه، والمؤدب، والعالم، والمدرِّس، يعتبر في السودان الغربي، وفي غيره من المواقع مركز إشعاع علمي، يبدِّد بعلمه دياجير الجهل، الذي

ينعت بالظلام، وفي مدرسته المبنية بأعواد القصبة أو خيمة الشعر، أو تحت شجرة الطلح، المنتشرة في صحراء السودان الغربي أو في مسجده المبني بالطين، يدرِّس اللغة العربية والقرآن الكريم والفقه. فعندما يُتَوَفَّى فقيهٌ يترك فراغاً واضحاً، حيث يعتبر موته خسارة لهم، وتتحرك مشاعر الشاعر لهذا الحدث ويُهرَع أصدقاءُ العالِم وتلاميذه يرثُونَه بقصائد تعبِّرُ عما يخالجهم من آلام وأحزان لفقدهم عَلَماً من أعلام المنطقة.

نبذة عن حياة
الشيخ محمد محمود الأرواني

عالم وأديب من علماء تنبكت، ولد عام 1911 م بمنطقة أزواد شمال تنبكت، وكان ذا شخصية وَهَيْبَةٍ. تربى تَربيَةً إسلاميةً ودرس على علماء عصره، وظهر نبوغه الفكري. ولِّي القضاء في تنبكت، وهو منصب رفيع لا يتولاه إلّا من كان متمكناً من العلم، وحسن التدبير. زار مصر في عام 1954م وقابل فقيدِ العروبة وافريقيا الرئيس جمال عبد الناصر، والعلامة محمد محمود الأرواني له عدة مؤلفات جليلة في شتى فروع المعرفة.

تعرَّض للسجن من قبل موديبوكيتا رئيس جمهورية مالي السابق، عام 1960 م وأطلق سراحه موسى تراوري بعد انقلابه العسكري، وولاه قضاء تنبكت، واستمر في هذا المنصب إلى أن تُوفِّي عام 1973 م بمدينة تنبكت. تعرّفت على إبنه عادل الأرواني عام 1985 م عند زيارتي الأولى لمدينة تنبكت، وزرته في بيته، ونشأتْ بيننا صداقةٌ، ولمست في هذا الشاب الجدية، والصرامة والعلم، والخلق، فهو أديب مفوَّهٌ من أدباء تنبكت بالرغم من حداثة سنه.

من أشعار الأرواني:

وشاعرنا الأرواني يرثي بعض أخوانه، ويذكر الحاضرين بأن الموتَ سنّة

اللّه في خلقه كل إنسان لا بد أن يرتشف من ذلك الكأس، وهنا شبّه الموت بالكأس المملوء بالماء، ونحوه وكل واحد يرشف هذه الرشفة إن كان عبداً أو سيداً فكأنه يستمد كلمات هذا البيت من البيت الذي يقول:

الموت كأسٌ كلُّ الناسِ ذائقه والقبر دارٌ كلُّ الناسِ ساكنه

ويظهر في هذه القصيدة القصيرة انتقاء الكلمات، وروعة في الأسلوب، والبلاغة في التصوير واستعارة، وكتابة فهي تنم على ضلوع صاحب القصيدة في اللغة العربية وبلاغتها، فهو تصوير بليغ.

وختم قصيدته بأن الموت لا مفر منه، فحتى سيد الكائنات محمد بن عبداللّه انتقل إلى جوار ربه، وهو خير البرية، فالموت لا يفرق بين البشر. ولكن شاعرنا الأرواني لم يفلت من الكأس الذي رثا به بعض أخوانه. وما هي إلّا فترة من الزمن حتى تجّرعها، وبموته فقدت منطقة غرب افريقيا عَلَماً من أعلامها، في العلم. وقد رثاه عدد من علماء غرب افريقيا، نورد نموذجاً منها خشية الإطالة على القارىء. فهذا الفقيه الورع الزاهد الشيخ عيسى يرثي العلامة محمد محمود الأرواني بقصيدة تحتوي على خمسة عشر بيتاً يصوِّر فيها الشاعر أن الدائم هو وجه اللّه تعالى أما البشر فإلى زوال طال الأمد أم قصَر. ويبين شاعرنا أنّ فقد العالم من الصعب تعويضه، وضَرَبَ مثلاً بالعلامة صاحبنا الذي قال عنه أنه لم يترك من يوازيه في العلم، وعرفه بالحبر الراسخ قِدَمِه في العلم وهو الذي يحلّ مشاكل المنطقة من فتاوى وغيرها.

وهذا نموذج من قصيدة للشاعر محمد بن محمد بن إبراهيم، يرثي فيها شيخه حما النحوي.

وفيها يذكر شمائل شيخه، من علم، وأدب، وعدل، وبشاشة الوجه، وحسن المعاملة ويطلب من اللّه أن يسكنه فسيح جناته، بما أسداه للعلم وأهله من خدماتٍ جليلة يذكرها الذاكرون من بعده.

وصدق رسول اللّه «صلعم» حين قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من ثلاث: صدقةٍ جاريةٍ، أو ابن صالحٍ يدعو له، أو علمٍ يُنْتَفَعُ به».

من البحر الوافر:

مفاعلتن مفاعلتن فعولن

مفاعلتن مفاعلتن فعولن

بَكَتْ عَيْني بدمعٍ من صَديدِ … على متواضعٍ ورعٍ عفيفِ
يلاقي بالبشاشة من أتاه … وفعل ملاطف ندب شريف
ويُقْبِل إن به ضَيْفٌ ألمّ … بخد ساطع حسن طريف
أرقت لحزن مهلكه بليلِ … بُعَيْد الصبح في أسف كشيف
ولكن كيف يبقى بين خلقٍ … قليل الخير مع دهر عنيف
أياً من قد قضى بالعدل فيه … أدِمْ سُكْناه في ظلٍّ وريفِ
ونَقِّ ثيابَه بِرضىً وعَفْوٍ … ومَحْوِ الوِزْرِ مع رِفْقٍ لطيفِ
وَنَوِّرْ قبره بشعاعِ نورٍ … بدا من نور ذي الشرف المنيف

* * *

قال محمد محمود بن الشيخ الأرواني في رثاء بعض أخوانه:

البحر الكامل:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

متفاعلين متفاعلن متفاعلن

الموت حُكْمُ اللّهِ في الأجناسِ … لا بد للمخلوقِ من ذا الكأسِ
لم ينجُ منه والدٌ لا لا ولا … مولوده في الناس ليس بناس
وأحق بالمرء الكبير رجوعه … عن حبه طيب البقا لليأس
فمآلنا كلاً إلى ذوق الفنا … ورحيلنا كلاً إلى الأرماس
لَكِن فَقد حفيدِ شيخي حامدٍ … أشجانُه ضاقت بها أنفاسي

وجبالُ صبري دَكَّها أحزانُه ... إنّي به مستأنّسه به آس

ولأجل أجرِ الصبرِ أصْبِرُ داعياً ... أهلي لفَضْل الصّبر صبرِ راس

لا تجزعوا أخواتنا حاشاكُمُ ... أنتم رؤوس الناسِ يومَ البِاسِ

أمحمّدُ صبراً لفقدِ محمدٍ ... فمحمدٌ قد ماتَ خيرَ الناس

وصلاةُ ربي والسلام على النبي ... هو سيدُ الكونين في الأجناسِ

* * *

العالم العلامة محمد محمود الأرواني المالي الشيخ، كان قاضياً في تنبكت، توفي في سنة 1972م فرثاه الفقيه الورع الزاهد الشيخ عيسى بهذه القصيدة:

البحر الوافر:

مفاعلتن مفاعلتن فعولن

مفاعلتن مفاعلتن فعولن

ألا إنَّ الدوامَ منَ المُحَالِ ... وَليسَ يدُوُم إلَّا ذُو الجَلالِ

وكُل فتّى وإن طال الزمانُ ... سيُنقلُ لا محالةَ للمآلِ

وَلكِنْ فَقْدُ أهلِ العلمِ شيءٌ ... كبيرٌ عند ذي دينٍ وبالِ

وهذا الحبرُ لم يترك نظيراً ... فإنّا راجعُون لذي الكمالِ

وذاك محمدُ المحمودُ سعياً ... حباهُ الفوز فضلاً ذُو النوالِ

فمن ذا للقضاء وللفتاوى ... وحلُّ المشكلاتِ بأرض مالي

له القَدَمُ المعلّى في العُلوم ... سَمِيٌّ لا يُجارَى في المَعَالي

وهمّته لهذا القُطْر كُلاً ... يعينُ من اعتراه بكل حالِ

فَليسَ مُصيبةٌ فقدٌ لشيء ... من الدُنيا ولو فوتُ اللئالي

ولكن المصيبة فقدُ شيخ ... يفوت بفوته علم الحلال

ويا تكرورُ صبراً قد دُهمناً ... بداهيةٍ كأمثال الجبالِ

ويـا أروانُ يـا تـنـبُـكـتُ صـبـراً — فـأجـر الـصـبـر أفـضـل فـي الـمـحـالِ
حـبـاهُ الـلّـه بـالـرضـوان فـضـلاً — وأسـكَـنَـهُ الـجِـنَـان بـلا نـكـالِ
بـجـاهِ شـفـيـعـنـا الـمـبـعُـوثِ صـلّى — عـلـيـه إلـهُـنـا أمـدَّ الـلـيـالـي
والٍ ثـم أصـحـاب كـرامٍ — وتـابـعـهـم بـإحـسـانٍ وتـالِ

* * *

قصيدة الفقيه الشاعر سيدي عالي التنبكتي، يرثي يحيى الونكري:

من البحر البسيط:

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن — مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

مـا الـدار دار الـدُّنـا داراً لـذي وَجَـلِ — كـلّا ولـيـس نـعـيـمُـهـا لـذي أمـلِ
بـل هـي دارُ عـنـاءٍ وابـتـلاءٍ ولا — يـنـفـكُّ سـاكـنُـهـا من كـثـرةِ الـزَّلَلِ
يُمسي الـحـبـيـبُ سروراً بـالـمـحـبِّ وفي — فـجـرِ الـغَـداةِ إذا بـالـخـطـبِ والـجـلـلِ
لـمّا نَعَوْا سيدي يحيى الشقيق دهتـ — ـني الكروبُ إلى أن غبتُ عن وهلي
أصبحتُ يومئذٍ خلواً حليف أسى — أقولُ سُبحان ربي الحيّ في الأزلِ
الـلّـه أكـبـر هـذا وعـدُ خـالـقـنـا — ووعـدُهُ صـادق مـن دُونمـا خـلـل
راجـعـتُ ربـي إلـهـي ثـم قـلـت إذا — إنـا إلـى الـلّـه راجـعُـون بـالـوجـل
لـعـل رحـمـتُـه تـعـمُّـنـا وكـذا الـصـ — ـلاةُ مـن ربـنـا تـأتـي عـلـى مـهـل
فـليـنـتـسـب أدعـيـاء الـفـضـل كـيـف رَأوا — فـقـد تـغـيَّـب عـنـهـم صـاحـبُ الـنـحـلِ
ولـيـفـخـرِ الـيـومَ قـومٌ بـالـسـخـاءِ ولا — خـوف فـيـحـيـى عـديـم الـنِّدِّ والـمَـثَـلِ
لو عاش لـم يطرقِ الأسـماع ذِكْرُهمُ — ولـو رأوا جُـودهُ ولُّـوا مـن الـخـجـلِ
أجـل فـقـد مـات هـذا الـونـكـري أسفاً — وأوحشت أرضُنا في العلو والسفل
فكل نفس لعلياه حَكَت وشَكَت — وكل عين بَكَت من سائر الملل
ولا غـرابـة فـي هـذا فـإن لـهُ — جـمـرَ الـشـمـائـل أشـتـاتـاً بـلا حـيـل

منها السخاءُ ومنها الحلمُ ثم تفي صبرٌ جميلٌ تواضُعٌ بلا دَغَل[1]
عدِّد صنُوف المروءات بأجمَعِها ولا تَخَف لائماً في ذاوه ولا تَسَل
يا لائماً في مَوالاة الحبيب فَلا تَعْذِلْ فنانك في غياهب السُّبل
لو كنتَ تعلمُ ما يحويه من كَرَم لما تأتى لكم عتْبَى أخا العُذل
لكنّ مِن لازمي قَبول مَعذِرة لأن أعذارَكم أولى من الجدل
فاذْهَب فقد أثْنَت الأنام كلُّهم عليك إذ هُم شُهودُ اللّهِ والرسُل
حُزتَ الشهادةَ ذات الجنب تشهد لي مع السُّقام الذي قاسيت والعلل
يكفيك مرضاة شيخنا التجاني وذا كافٍ لكل مُريدٍ صادقِ العمل
طُوبَى لكم حيث جاوَرْتُم شَمِيَّكُمُ فَنَمْ فأنت عروس نام في الحجل
فاللّه يغفر ذنبكُمُ ويرحَمُكُمُ ويُدخِلنكُمُ الجنان ذا الظلل
يا آل ونكري هذا الرزءُ رزؤُكم لكنّ غيرَكم قد غَاص في الوَحل
عزَّيتكم يا إمامَ القوم بأب ومن فصل الخصام له قدماً وذاك جلي
ثم الصلاة على محمد وعلى الصـ ـدِّيق فاروقنا عثمان ثم علي
والآل والصحب والزوجات كلهم والتابعين منا وكل ولي

* * *

(1) الدغل: العيب في الشيء يفسده.

من بحر البسيط:

يا لَهفَ نفسيَ منْ هذا المصابُ لَقَدْ حَلَّتْ رزيَّتُه في القلب والكبدِ
يا للمدارس مِنْ يُتمٍ ومن وَصَبٍ وطالبُ العلم أضحى ظاهر النكدِ
إن العلومَ لَتبكيكم بأكملِها تفسير قرآنها بواضح السند
أصول مذهب مالك وعمدته فروع مذهبه كلّ بذا الصدد
يا للخليل ويا نصّ الرسالة قد رزْيتها فابْكِيَا من دونما أمد
وأصبح النحو والصرف اللذان هما طَوْعُ الفقيد غزيرَ الدمعِ والسُّهُدِ
يا لَهَف حضرتُنا وَيَا وظائفُنا مَن ذا لنَا بالنُّصح والمَدَد
يا شمسَ فضل زماننا المنير ويا بحر العلوم به من غير ما فند
قد غِبْتَ عنا ولَكِنْ نورُ بهجتِكم باقٍ ومجدكُمْ باقٍ مَدَى الأبد
قد غاب طَاهِرُنَا وغَابَ عَارِفُنا وغَابَ مَن يُفتدَى بالمالِ والولد
ربّيتنا بصِغَار العِلْم تُرشدنا وحيث صُرْنَا كباراً كنت ذا أود
تَواضُعاً منك لا أمراً تُبَيّنه مِمّا احتَويت عليه جيِّد العهد
باللّه باللّه ما عَلِمْتَ مِثْلَكُمْ مِن بيننا بَاقياً في القُطر والبَلد
وما شَهِدتُ بغير الحقّ في قَسَمِي ولا عَلَى إذا ما قُلْتُ مُعْتَقَدي
علّ الإله بفضل اللّه يَجْمَعُنا تَحتَ الظِّلال عَرْشُه الرَّغِد
في جنّةِ الخُلد دارَ المُتّقِين وفي أقْصَى الجِنَان وعِنْد رُؤية الصَّمَد
صلّى إلهُ الوَرَى ما قال قائِلُنَا إن المدينة تنبكت لَفِي كَمَدِ
على النّبِي المصطَفى وآله الكرَمَا والناسُ ما بين ذي حُزن وذي جَلَدِ

الفصل الخامس

التوسل والمديح

شعر التوسل

التوسل إلى الله برسول الله (صلعم):

أضفى الإسلام على نفوس أبناء السودان الغربي، مبادىء الحب، والوئام، والتَّخلُّق بالخلق الحسن، وبعث في نفوسهم حبَّ الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي بلَّغ دعوة ربه أحسن تبليغ، والذي مدحه الله عزّ وجلّ في كتابه العزيز «بسم الله الرحمن الرحيم وإنك لعلى خلق عظيم» صدق الله العظيم: وقوله «بسم الله الرحمن الرحيم وما آتاكم الرسول فخذوه» وقوله: «بسم الله الرحمن الرحيم وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين» صدق الله العظيم. وغير ذلك من مواضع التكريم، لرسول البشرية سيدنا محمد بن عبد الله، الذي أخرج البشرية من الظلمات إلى النور، فأخذوا يمدحونه بقصائد يتوسلون به إلى الله تعالى، عندما تضيق بهم الحالة، وما أكثر ذلك خاصة عندما تبخل السماء عليهم بالمطر، فتجدب الأرض وتموت مواشيهم ويهلك حرثهم.

وقد استغل المستعمرون من أمريكان وفرنسيين هذه الظروف القاسية التي يمر بها أبناء السودان الغربي من المجاعة والفاقة، فأحضروا لهم الحبوب المتعفنة التي كان مقرراً لها أن ترمى في البحر تحت اسم الإغاثة الإنسانية، كان ذلك عام 1974 م.

ولقد شاهدت عشرات من حركات التبشير تجوب منطقة جنوب

الصحراء تحت إسم الإغاثة الانسانية، وهي توزِّع جرعات الموت. وعلى كل من يريد أن يحصل على هذه الكيلوجرامات أن يأتي إلى مركز توزيع الاغاثة، فكان سكان الصحراء يغدون إلى تلك المراكز قاطعين مسافات تزيد على الخمسين كيلومتراً بوسائل نقلهم البدائية.

وما يفعله المستعمر اليوم في أفريقيا فعله في الماضي مع أبناء أمة العرب، فقد استغل حالة الفاقة التي كانت تعانيها من جراء الحروب التي خاضتها ضده وقدَّم لها اليد البيضاء، المطلية بالسواد، من إغاثة وما يعرف بالقرامات عندنا في ليبيا. غير أن الكثير من الأهالي، رغم تدهور أحوالهم الاقتصادية رفض أخذ هذه المعونة المشبوهة والتي هي بمثابة سموم. وهذا أحد أبناء ليبيا يعبر عن رفضه أخذها بقوله:

خمسة كيلو ها الشعير بلاهم خير نبوهم عانه للمدير

وفي ظل هذه الظروف القاسية شرع شعراء الصحراء في نظم القصائد توسلاً إلى الله، الذي لا يمنّ على عباده، إذا أعطاهم، بأن يخرجهم من هذه الفاقة، ولم يتوسلوا إلى المستعمر الذي يحاول أن يوقعهم في حبائله. وهذه القصيدة نموذج لهذا التوسل.

والشاعر محمد أحمد بن محمد بن الهادي بن محمد المبارك بن علي، شاعر تنبكتي لم تسعفنا المصادر والمراجع التي بين أيدينا في الحصول على ترجمة، له، غير أننا نستشف من شعره بعضاً من ملامح شخصيته، خصوصاً ما يتعلق منها بثقافته. فشعره دليل على تمكّنه من ناصية القول، ومعرفته بأفانين الكلام، ثم إنه يدلنا على روح دينية مرتبطة بالرسول (صلعم) وهو في ذلك يعبر بها أيضاً في التوسل الشائع عند شعراء عصره، أضف إلى ذلك أن الإشارات التاريخية المرتبطة بالصحابة من أمثال العباس وحمزة تقدم برهاناً على ثقافة تاريخية توحي بتبحرٍ في علم السيرة النبوية، كما أن حديثه عن الجفاف واستسقائه المطر دليل على معايشته

لهموم قومه، وهو أيضاً يرد كيد كل ظالم في نحره، فهو بذلك مناضل بقلمه وسيفه من أجل الحرية فيقول:

ولقهر كل خصومة في ظالم ولرد كل شماتة الأعداء

وشاعرنا يترجم الواقع الذي عليه حال المنطقة في قصيدتين،

الأُولى مطلعها:

الله لي في شدتي ورخائي وشفاعة الحب النبي رجائي

والثانية:

أشكو إليك ولا أشكو إلى الناس فقري وذلِّي وتقصيري وإفلاسي

ويقول محمد أحمد بن محمد بن الهادي بن محمد المبارك بن علي بن النجيب:

من البحر الكامل:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

اللّه لي في شدّتي ورخائي وشفاعةُ الحبُّ النبي رجائي
الله حسْبِيَ واعتَصَمْتُ بحبليه وكفى وحسن الظن فيه ردائي
والمرسلون وآل كل عدتي ثم الصحابة كلهم شفعائي
يا من إليه وسيلتي وشكايتي وحمايتي في الضر والسراء
ووسيلتي العظمى إليك محبتي لشفيع خلقك سيد الشفعاء
نال الكرامة والعلا من ربه فَسَرى فأدرك فوق كل سماء
ما ليس أدركه نبيٌ مُرْسَلٌ كلا ولا مَلِكٌ من الكرماء
فاستبشرتْ بقُدومه فَرَحاً بِهِ أهلُ العُلا طراً بكل سماء
ناجاه ربُّ العرشِ في ملكوتِه وأراه للجبروت كل سناء
فسقاه كأساً للهداية فارتوى من كل نورٍ فيه كل شفاء
أمضى فريضته فعادَ ولم يَلُحْ للصبح ضوءٌ ما من الأضواءِ
صلى عليه الله أطيب صلوةٍ تُهدى لمن هو أهل كل سناء
وعلى جميع الآلِ والأصحابِ ما نُودي الإله بأعظم الأسماءِ
والأمهات وكل تالٍ سالِكٍ نهج الهداة السادة الأمراءِ
يا حيُ يا قيُومُ يا ذا الجود والأ فضال يا ذا المنى والأعطاءِ
يا مُحسناً عَمّ الورى إحسانُه يا مُنْعِمٍ يا أرحم الرحماء
أنت اللطيف بنا وأنت المُرتجى أنت السَّميع لنا وأنت الرائي
أنت المُجيب لكلِ داعٍ مُخلص يَدْعُو بكل سميٌ من الأسماء
أنت المجيب لِمَن دعا متواضعاً متوسِّلاً يدعو بكل دعاءِ
أدعوك ممتثلاً لأمِركَ فآستجِب أرجو رضاك وأرجو منك فدائي

يا رب بشّر بالكرامة والرضا | وبنُبْلِ فضلِ شَفَاعةِ الشفعاءِ
يا رب بالعباس عمّ المصطفى | ربّ بحمزة سيد الشهداءِ
ربّ اسْقِنَا غيثاً سريعاً طيباً | من ديمةٍ من رحمةٍ هطلاء
سهلاً مريعاً نافعاً أم صيِّباً | عذباً طهوراً فيه كل شفاءِ
جوناً غزيراً بل خريفاً سِقْ لنا | بالرفق أنت مقدّر الأشياءِ
يروي البلاد مشارقاً ومغارباً | بين الصباح وبين كل مساء
يروي نبات الأرض بين هضابها | يروي ذوات الدُّر والأبناء
تحيي به جُرزاً بقاعاً بعدما | قَحطَت ومَاتت أيما إحياءِ
ولتنبتنّ به جميع الزرع في | كل المنابت مُنشيء الأعضاءِ
زوجاً فزوجاً من نبات طيب | مثل الدُّبا والنخل والقثاء
ترعى البهائم كل روض رائق | ذي بهجة وحديقة غنّاءِ
فتظلُّ طوراً تجتنيه وتارةً | تأوي إلى خُلُجٍ به من ماءِ
فإذا ارتوت تلطّت وبالّت بعدما | اجترّت بما نالت من النعماءِ
فتفيض أخلافٌ بكلِ تشخُّب | وتؤوب رائحةً قُبيل مساءِ
سبباً يكون لطاعةٍ لا فتنةٍ | تخشى عواقبها بكلّ ملاء
سبباً يكون لتوبةٍ أرجو بها | محوَ الذّنوبِ وَجَلْبِ كل رخاءِ
سبباً يكون لدفع كلّ ضلالةٍ | ولدفع كلّ مضرةٍ وَبَلاءِ
ولقهر كل خصومةٍ مِن ظالِمٍ | ولردِّ كل شَماتةِ الأعداءِ
أوذاك أم حوضاً نقياً أرتجي | بكمال فضلِكَ واسِعَ الإعطاءِ
أعددته للصائمين نهارهم | وبليلهم يبكون كل بكاء
يرجون قرة أعين من ربهم | وشفاعة من سيد الشفعاءِ

وقال الشاعر محمد أحمد بن محمد بن الهادي بن النجيب:

من البحر الوافر:

مفاعلتن مفاعلتن فعولن

مفاعلتن مفاعلتن فعولن

أشكو إليك ولا أشكُو إلى النَّاس ... فِقْرِي وذُلِّي وتقصيري وإفلاسي
أشكو إليك مع التسليم مبتهلاً ... فأنت مَن لجراح الملتجيء آس[1]
فالْطُف بنا في مجاري ما تُقدرُه ... يا من مقاديرُهُ تجري بقسطاس
ولا تِكْلنَا إلى تدبير أنفسنا ... واجْعَل هُداك محجتي ونبراسي[2]
واصحب بلطفك في الحالات يا حمد ... واجعل بذكرك ربي طيب أنفاسي
وخُذْ بنا للنَّجاة مسلكاً أمماً ... ينجي من الهلك والبأساء والباس[3]
أسْبِغ علينا دلاص عصمة ونجا ... من موجب المقت والبلوى والإبلاس[4]
وارمِ العدا بسهام البطش هائبة ... مسمّومات لِعَاتٍ قلبهُ قاسِ[5]
وزُد من رأفنا بمكره وبغي ... أذلّ من زَمَت مِن مستهلكٍ خاس[6]
وانصر وظفر وأثرنا وكن عضداً ... به المصال على تهويس الأهواس[7]
ولا تهِنّا ولا تشمَّت بنا أحداً ... يا من عنايته حرزي وحُرّاسي
ومن نواصي الورى مَكِّن يدي وأعِنْ ... على التكاليف يا من ليس بالناسي
وسخِّر الكون واصْحبني بعارفة ... من سر لطفك تغنيني عن أجناسي
وكُفَّ عنا أكَفَّ الماكرين بنا ... وابْنِ على الرشد والإيقان أساسي

---

(1) الآسي: الطبيب.

(2) المحجة: الطريق، والنبراس: المصباح.

(3) أمما: قريباً.

(4) الدّلاص: الدرع سواء كانت حديدية أم المصنوعة من الجلد، والإبلاس: السكوت من خوف.

(5) عاتٍ: ظلوم قاسٍ، من القساوة.

(6) خاسي: طريد.

(7) العضد: النّاصر والمصال القتال.

واجعل براجم راحتي مقالد | ما يرتاح من روحه مأسور إبلاس[1]
وشق قلبي وأملأ، مناسبةً | من صفو خالص ما أفرغت في الطاسِ
واجعل غذائي أسراراً مقدّسة | تسري دبيباً إلى مفارق الراس
واجعل عيون معين النفع جارية | على يدي إلى جداول الناس
وسخّر الكون واطوِ البُون يا صمدٌ | إحسانه لعوار المعتري كاس[2]
واكسفِ الشرور وهيِّء الأمور ولا | تُمهل على فرقة الضلال الأرجاس[3]
وخذهُم أخذَ من عاجلْتَ منتصراً | لِدينك المرتضى يا خير نقّاس
أغرّ بهم كل شائك بشوكته | وضابث بأظافير وأضراس[4]
حتى يصيروا لدى أشكالهم عبراً | اذ أصبحوا أثراً من بعد إيناس
واجمعهم بحجارة الوبال فلا | يشذّ منهم عن المرمى أخو باس
يا ربنا واعفُ عنا يا عفُوُ وجُد | بالنصر يا ناصراً سلطانُه راس
ولا تُغيّر علينا نعمةً سبَغَتْ | يا مَن يَمُنّ بلا حدٍ ومقياس
وصلِّ أزكى صلاة بالسلام على | مُصاص قهر وصفو جذم إلياس
والآل والصّحب ما وافى أخو كرم | يشكو إليك ولا يشكو إلى الناس

* * *

---

(1) البراجم: مفاصل الأصابع، إذا قبضت كفّك نشزت وارتفعت.

(2) البون: البعد، والعوار: العيب.

(3) الأرجاس: جمع، رجس.

(4) الشائك: ذو الشوكة.

قصيدة للعالـم والأديب الشيخ محمد بن عبد الكريـم الـمغيلي. وهي لون «جديد» من ألوان الـمدح لرسول الله (صلعم)

نبذة عن حياته:

ولد العلامة محمد بن عبد الكريم المغيلي عام 790 م في مدينة تلمسان بمنطقة مغيلة. نشأ في مدينة تلمسان ذات التاريخ الحضاري في بيت عريق عرفِ بالحسبِ والنسب. وكان من المثقفين القلائل في بلده، تربى على يد أبي العباس الوعليسي، ودرَّس القرآن الكريم وأمهات الكتب على يد سيدي أحمد بن عيسى المغيلي التلمساني المعروف بالجلاب، كما درس العلم على آخرين وقد عُرف بنبوغه الفكري المفرط.

رحلاته:

بعد تمكُّنه من العلم اتجه صوب توات ومنها انتقل إلى مدينة أقدز حيث بني فيها مسجداً وأخذ يعلِّم العلم، ومن ثم غادرها إلى كانو ومنها إلى مدينة جاو عاصمة امبراطورية سنغاي حيث التقى بالحاج أسكيا محمد، وأجابه على مجموعة من الأسئلة قام بتحقيقها زبادية وحشويك يجيب فيها على أسئلة أسكيا الحاج محمد. وفي هذه الأثناء سمع بمقتل ابنه عبد الجبار من طرف اليهود فحزن لذلك أشد الحزن وأراد الرجوع إلى توات إلّا أن نية أداء فريضة الحج كانت قد سبقت ذلك فذهب إلى الأراضي المقدسة وأدّى فريضة الحج.

مناظراته:

حدثت له مناظرة مع الشيخ جلال الدين السيوطي حول قيمة دراسة علم المنطق وكيف أن السيوطي عنده تَحَفُّظٌ على هذا العلم فكتب له المغيلي قصيدة في هذا الخصوص نورد أبياتاً منها للتدليل على ذلك، يقول فيها:

قصيدة من البحر الطويل:

فعولن مفاعلين فعولن مفاعيلن

فعولن مفاعلين فعولن مفاعيلن

سمعت بأمر ما سمعتُ بمثله | وقلّ حديث حكمه حكم أصله
أيمكن أن للمرء في العلم حجة | وينهى عن الفرقان في بعض قوله
هل المنطق المعنيُّ إلا عبارةٌ | عن الحق أو حقيقة حين جهله

فردَّ عليه الشيخ جلال الدين السيوطي بقصيدة، نورد منها بيتين يقول فيها:

من البحر الطويل:

عجبت لنظمٍ ما سمعتُ بمثلِهِ | أتاني عن حبرٍ أُقِرُّ بِنُبْلِه
سلامٌ على هذا الإمام فَكَمْ له | لديَّ ثناءٌ واعترافٌ بفضلِهِ

ومن هنا ندرك قيمة هذا العالم الذي وقف الشيخ جلال الدين السيوطي أمامه مذهولاً لتبحُّره في العلم.

وفاته:

توفي العلامة محمد بن عبد الكريم المغيلي عام 909هـ بقصر بوعلي التابع لزاوية كنتة حالياً بعد رجوعه إلى توات.

وألتمس من القارىء العذر على هذه المعلومات المقتضبة عن هذا الحبر الذي ذاع صيته فهو نار على علم.

وقصيدة المغيلي التي نحن بصددها هي مدحٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتحتوي على ثلاثة وعشرين بيتاً تترجم إيمان الرجل وتمكُّنه من اللغة العربية وبلاغتها. يقول مطلع القصيد:

من البحر البسيط

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

بشراك يا قلبُ هذا سيّد الأمم　　　وهذه حضرةُ المختار في الحرم

فمن خلال القصيدة نلمس ـ كما سنرى ـ أن المغيلي يهرع إلى رسول الله (صلعم) ويطلب منه الشفاعة عند الله من الذنوب التي اقترفها. وجلّ العلماء والصالحين رغم أعمالهم الصالحة التي يقدمونها وندرة وقوعهم في الزلل، إلا أنهم شديدو الخوف من غضب الله ومن عدم دخولهم الجنة.

فنجد في أشعار الصوفية كثيراً من هذا الصنف. فعلى سبيل المثال يقول الصوفي يخاطب نفسه عند رحيله من دار الفناء إلى دار البقاء:

من البحر الطويل:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

زادي قليلٌ ما أراه مُبَلِّغي　　　ألِلزادِ أبكي أم لِبُعْدِ المسافة

أتحرِقُني بالنار يا غاية المنا　　　وفيك رجائي فيك كل رجائي

* * *

وهذه قصيدة للشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي يقول فيها:

من البحر البسيط:

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

بشراك يا قلبُ هذا سيدُ الأمم　　　وهذه حضرةُ المختار في الحرم

وهذه الروضة الغراء ظاهرةٌ　　　وهذه القبةُ الخضراء كالعلم

ومنبرُ المصطفى الهادي وحجرته　　　وصحبه وبقيع دائر بهم

فَطِبْ وعِفَّ همومَ كنت تحملها وَسَل تنلْ كلَّ ما ترجوه من كرم
يا سيدى يا رسول الله خُذْ بيدي فالعبد ضيف وضيف الله لم يُضم
يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي يا من لقاصده أمن من النقم
يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي فبحر جودك مورود لكل ظم
يا سيد الرسل يا من ضيفُ ساحتِه يبيت في الأمن في خير وفي نِعَمِ
يا أكرمَ الخَلْقِ من حافٍ ومنتعلٍ يا أفضل الناس في ذاتٍ وفي شيم
يا أشرف الأنبيا يا مَن شفاعته عمت على الخلق في الوجدان والعَدَم
يا صفوةَ الله يا مَوْلَى مكارِمه عمت على الخلق من طفل إلى هرم
إنّي فقيرٌ إلى عفوٍ ومرحمةٍ وأنت أدرى بما في القلب من ألم
وقد أتيتك أرجو منك مكرمةً فأنت أهل التُّقى والجود والكرم
فالحالُ يُغني عن الشكوى إليك وقد عَرفْتَ حالي وإن لم أشكِهِ بِفَمِ
فاشفع لعبدِكَ واجبرْ كَسْره فلقد أودى به الكسر مما نَال من جُرم[1]
يا أحمدٌ يا أبا بكر ويا عمرُ نزيلكم في أمان غير منهضم
وقد سعيت إلى أبواب حجرتكم سعياً على الرأس لا سعياً على القدم
وأتى من أم القرى يرجو لُقِيَ كرماً لسادةٍ همْ بُحور الفضلِ والكرم
فإن قبلتُم فإني مُفْلِحٌ بِكُمُ في زورةٍ واقترابٍ وافِرَ القَسم
يا من أجَلُّ ملوك الأرض قاطبة في باب أفضلهم من أصغر الخدم
فهل عسى نظرةٌ منكم لزائركم يُغني بها عن جميع الخلق كُلِّهِمِ
مُحمدٌ وضجيعاه الذين بهم طبنا عن الخسران والندم
يا رب يارب يا مولاي عبدك في باب الرجا يرتجي أمناً مِن النقم

* * *

---

(1) الجرم جمع جرمة ككلمة.

كما نجد شاعراً صحراوياً آخر يسلك نفس المنهج الذي اختطه الشاعر محمد بن النجيب، ألا هو الشيخ سيدي الكنتي، في قصيدة عدد أبياتها أربعة وسبعون بيتا يطلب فيها من الله أن يخرجه من فاقته ويتوسل برسول الله (صلعم).

نبذة عن حياة العالم والأديب سيدي محمد الكنتي:

ولد العالم والأديب الشيخ سيدي محمد الكنتي عام 1765م وهو الابن الخامس للشيخ سيدي المختار الكبير. وقد ظهر نبوغه العلمي وشخصيته القيادية منذ نعومة أظفاره الأمر الذي جعل والده يهتم به اهتماماً خاصاً إلى أن اصطفاه من بين أخوته ليكون خليفته من بعده. وقد تقلَّد قيادة كنتة بعد وفاة والده عام 1811م وعرف عنه طيلة فترة حكمه الحنكة والدراية والعدل بين رعيته إلا ان فترة قيادته لم تدم طويلاً، قدرت بخمس عشرة سنة، انتقل بعدها إلى جوار ربه عام 1826م ودفن بجوار والده في بو الأنوار وهي مقبرة لرجالات كنتة.

وبالرغم من قِصَر هذه الفترة إلا إنه أَسدى أعمالاً جليلة يستحق عليها الشكر والثناء، فقد ترك لنا آثاراً تاريخية وأدبية. فمما ترك من الآثار التاريخية يتمثل في مخطوطة «الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة»، وهو مخطوط نفيس يتناول جوانب من حياة عرب جنوب الصحراء.

أما الآثار الأدبية فكان ما تركه منها مجموعة من الأشعار، منها هذه القصيدة التي بين أيدينا، وهي واحدة من عشرات القصائد التي تغنّى بها الشيخ محمد.

يقول الشيخ سيدي محمد الكنتي:

من البحر الكامل:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

يا رب أوفي حيلة المحتال	لجأ إليك بذلّة وسؤال
وتضرّع وتخضّع وتخشُّع	وتوسّل بالمصطفى والآل
أوفي الصلاة عليه منك بلا مدى	تمتد في الأزمان والأحوال
يا رب كفِّر بالمتاب ذنوبنا	واغفر لنا واصْفح عن البَطّال
يا رب فرّج كلّ داءٍ دائم	يا كاشف الأهوال والأكحال[1]
يا رب نَفّس كُرب كلِّ شديدةٍ	يا منقذاً لعالي من الأوحال[2]
يا رب ضاق خناق من عودته	لطفاً يدكّ رواسي الأجبال
يا رب اسبل من خزائنك الملآ	غيثاً يُغيث بِصَوْبه الهطّال
يا رب نشكو بالمقال وتشتكي	أنعامُنا ومصالها بالحال
يا رب رفقاً بالعِيَال فإنه	شأن الكريم الرّفق بالأثقال
يا رب عان لم ترش لم يتنعش	والفائز المحبوب منك بنال[3]

---

(1) الأكحال: شدة المحل.

(2) الأوحال: جمع وحل، الطين.

(3) النال: العطاء.

يا رب أرجاء الفضا مُغْبَرّةٌ جالت بها الأرواحُ كُلَّ مَجال
يا رب فانسخها بمزنٍ حُفَّلٍ جونٌ تجود بوابلٍ ذَيّال[1]
يا رب جلّل عرى كل بريّةٍ وخميلةٍ وَشْي الكلا يا وال
يا رب أخلف كلّ ظنّ ربه من حدس خرّاص وصاحب فال[2]
يا رب إن لم تستجب دَعوَى أخي خوَجاً فمن نرجوه للإنزال
يا رب أخلف كلّ نجم ناجم وطحا الجهام بغيمه الجوال[3]
يا رب بَرِّد من لَظى أنفاسها بالعذبِ من صَفْو الحَيَا السلسال
يحدو به يا رب منها راعد ويبوطه أن كع سابط آل[4]
يا رب قد قَنِطَ الأنام فأنزلَنْ غيثا مغيثاً دائمَ التهطَال
يا رب وانشر رحمةً وسِّع بها تُحيي مَوَات البيد والأطلالِ
يا رب دَارِكنَا بلطف منعش لكبارنا وصغارنا والحال
يا رب قَدِّس بالزكاة نفوسنا وانصر على القرناء والأفتال[5]
يا رب طَيِّب بالتقى أنفاسَنا والذكر والإخلاص والإقبال
يا رب انهكْنَا بعذب باردٍ من صَفْوِ علمٍ بالمعارف حَال[6]
يا رب وارفع دون لائحة السنا ومشاهد الزُّلفى غَطا الأسدال
يا رب أرشِدْنا لكل رشيدةٍ في القَال والأحوال والأفعال
يا رب لا تهتكْ ستورا صُنْتَها بعناية الإرفادِ والأرفال[7]
يا رب لا تصرم من أشطان الولا والقرب والزلفى إليك حبالي

---

(1) الحُفل: المليء بالماء.
(2) الخراص: القوال بالظن.
(3) ناجم: طالع، وطحا: أنبط، والجهام: السحاب الذي هراق ماءه.
(4) يحدو به: يوقه، ويبوطه: يخلطه أو يضربه بالسوط، وكع: فتر، أي تباطأ عن المسير.
(5) الاقتال: جمع قتل بالكسر وهو العدد.
(6) انهكنا: بالغ في سقينا.
(7) الأرفاد والأرفال: التعظيم.

يـا رب حـلّـل عـقـدة....الأزال … بـعـوارض تـهـم بـعـذب زلال(1)

يـا رب بـالـذات الـعـزيـز جـلالـهـا … وبـمـا لـهـا مـن عـزة وكـمـال

يـا رب لا تـجـعـل عـقـوبـة مـن أسـا … فـي فـطـح واصـل رزفـة الـمـتـوالـي

يـا رب بـالإسـم الـعـظـيـم ومـا بـه … سـمَّـيـت نـفـسـك فـي عـمـى الأزال(2)

يـا رب أرسـل دَيْـمَـة تَـنْـهَـلّ مِـنْ … تـجـويـف مـيـم الـرحـمـة الـهـطّـال

يـا رب بـالـذكـر الـحـكـيـم بـآيـه … بـحـروفـه بـالـنـقـط بـالأشـكـال

يـا رب طَـيّـب بـالـهـنـا جـرم الـهـوا … وطـارق الأوخـام والـزلـزال

يـا رب بـالـهـادي الأمـيـن الـمـصـطـفـى … والأنـبـيـا وطـوائـف الأرسـال

يـا رب لا تـحـمـل عـلـيـنـا إصْـرَ مَـنْ … حَـمَّـلْـتَـه ثِـقْـلاً مـن الأثـقـال

يـا رب بـالـبـيـت الـحـرام وركـنـه … بـمـطـافـه ومـشـاعِـر الإهـمـال

يـا رب اسـعِـفْـنَـا بـعـيـن مـرادِنـا … واجـعـلْـه مَـرْضِـيّـاً بـلا إخـلال

يـا رب بـالـقـلـم الـمـصُـون ولـوحـه … والـعـرش ذي الـمـجـد الـرفـيـع الـعـالـي

يـا رب سَـخِّـر عـالـم الـدنـيـا لـنـا … خَـلـواً مـن الأوجـاع والأوجـال

يـا رب بـالـغـوث الـمـقـرر رَسْـمُـه … وسـطـى لـنـظـم قـلائـد الإبـدال

يـا رب طـيّـب جـرم لـوح أغـبـر … عـادت بـهـيـف دائـم الإرسـال(3)

يـا رب بـالأقـطـاب بـالأوتـاد … بـالأخـيـار بـالـنـجـبـاء بـالـعـمـال

يـا رب جَـلْـبِـبْـنَـا جـلابـيـبَ الـهَـنـا … والأمـن والإيـمـان والأفـضـال

يـا رب بـالـسـبـع الـمَـثَـانِـي والـنـسـا … والـبـكـر والأنـعـام والأنـفـال

يـا رب كِـدْ مـن كـادَنـا وابـطِـشْ بـه … وارجـمْـه فـي جُـبّ الـرَّدى بـخـبـال

يـا رب بـالـعـيـن الـمـحـيـطـة بـالـحـمـى … وبـحـرزك الـحـتـمـي مـن الـصـوّال

يـا رب حِـطْـنـا مـن شَـبَـا نـاب الـمَـخُـو … ف ومـا يـسـوء وصـائِـل الأفـلال(4)

---

(1) الأزال: الشدة والضيق.

(2) العمى: الطول.

(3) الهيف: ريح تأتي في الصيف من جهة الجنوب وترفع حرارة الأقاليم التي تمر بها.

(4) الشبا: جمع شباة، حد كل شيء.

يا رب بالظاء الرشيق ولامه   والجيم والقاف العظيم البال
يا رب طَوّعْ لليمين من الورى   أبرارهم وشرارهم لشمالي
يا رب بالنور الذي سَجَدَتْ له   لمّا تَهَلّلَ سائرُ الأشكال
يا رب طَوّع كلَّ نفسٍ صَعْبَةٍ   بالقهر والتسخير والإذلال
يا رب بالعزّ الذي خَضَعَتْ له   شُمُّ الملوك وشامخُ الأجبال
يا رب سخّر لي العوالم مثل ما   سَخّرتَ بَحركَ للكليم النّال(1)
يا رب بالسعدا الذين بيُمْنِهم   فضلاً تلبي دعوة السؤال
يا رب قابِلْ بالإجابة دَعْوتي   فرتب أحوالي وينعم بالي
لبيك يا ربَّ الورى فأجب فما   أرجو سواك ربٌّ في الأمال
لبيك مولانا الكريم فأوْلِنَا   نِعَماً وخصباً سابغَ الأذيال
لبيك يا حنّان يا منّان يا   رحمان يا غفّار يا مُتَعالي
لبيك دارِكْنَا برفق منعش   للحال والماضي والاستقبال
لبيك يا فَتّاح يا وهّاب يا   رزّاق بُر بالشجي والخالي
لبيك أرزاقُ العباد أدرها   واقسم لنا الأوفى بلا مِكيال
لبيك جبارَ السمواتِ العُلَى   والأرض قيومُ الجميع الوالي
لبيك لو عاجلْتَ بالظُّلْم الورى   عَدْلاً لعمهم الردى بِوَبال
لكن بحلمك يا حليم غَمَرتَهم   فَبَسَطْتَ في الأرزاق والآجال
فَبِفضل حِلْمٍ منك عُدْ وأفِضْ حَيَا   يُحيي مواتَ الوَعْر والإسمال
واعفُ وَعافِ من البلايا والفنا   صَرْفَ الزمان وفتنةَ الأمهال
والصوْ على دهرٍ كَساه عُبُوسَةً   نَكَدُ الغلاء ودائمُ الأمحال(2)
بعوارضِ الدِّيَم العوارض فائضِ   الرزقِ الوسيعِ الوافِرِ المتتالي
وأدِمْ على فَخْرِ السَّنا أسْنَى الثّنا   في صَحْبِه شُهْبِ الدُّجى والآل

(1) النال: الجواد.
(2) النكد: الضيق والكمد.

أَزكَى صلاةٍ يستهل سحابُها وأَتِم تسليم على منوال
ما فَرّج الربُّ الكريمُ بِجَاهِهِ كُرباً تُحَيِّر حيلة المُحتَالِ

* * *

وقال أيضاً، من البحر الكامل:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

يا دائم الإحسان والمعروفِ   وافَيْت باب نَوالك المألوفِ
وَطَرَحْت أثقالَ اضطراري بالفِنَا   وشَكَوْت دَهْراً أزماً بصروفِ[1]
رَجَمَتْ نَوائبهُ بكل شديدة   فَنَهارهُ ليلٌ بجُنْحِ شُظُوف[2]
دهرٌ أثقل سمومه لحروره   وقضاؤه من زعزع وهيوف[3]
لا تخلفُ الأرواح فيه وعودَها   وبَوعْدِها مُزْن الحيا لم تُوفِ
بَخِلَتْ به كَفٌّ الحياءِ وأعْقَمَتْ   رَحِمُ العراء بِزهرها المَقْطوفِ
خَابَتْ ظُنونُ الناظرين لِمَوعِدِ   من نوءِ نجم كاذب مخلوفِ
ولنا بوَعدك يا كريم تَعلُّقٌ   بإجابَةِ المتكفِّفِ الملهوفِ
نحن العيالُ وإن جنينا غُرَّةً   بجميلِ حلمك رَبِّ والمعروف
فاغفرْ وتُبْ واصْفَحْ عن الجانين   من أهل الجفا والمذهب المأووف[4]
وَأقِلْ عَثَارَ العاثرين بِتَوْبَةٍ   واستُر بستْرك عورةَ المكشوفِ
وأرِحْ سَوَاماً شَفَّهَا جَدْب الفَلا   وَمَحولُ مرعاها وطولُ مَصِيفِ[5]
وأغِثْ بغيثٍ نافعٍ رَغْدَ الحيَا   جُودٌ يَصوب بِصَيِّبٍ ووكُوفِ
يَنْهَلُّ واكِفُه عَوَارِضُه على   عَطَشِ الفَلا ومَسافِح وحُقوفِ[6]
تَحيا البلاد فتكتسي من سُنْدُس الأ   زهار وشيَ مطارفٍ وشُفوفِ[7]

---

(1) الأزم: الذي يعرف بشدة القحط والعاض، والصروف. النوائب.

(2) الشظوف: الشدائد.

(3) الزعزع: الريح الشديدة.

(4) المأووف: المصاب بآفة مهما كان نوعها.

(5) السوام: الماشية، وشفها: أهزلها.

(6) المسافح: الأمكنة التي تصب الماء، والحقف: ما أعوجّ من الرمل، والحقوف: جمعه.

(7) المطارف: جمع مطرف، وهو الرداء، والشفوف من الثياب: الشفاف الرقيق.

يحدو به رَعْدٌ تجلجلَ شوهناً فكأنما هو ضاربٌ بدفوف
تمرى سحائبه الجنوب فَتنهمي ثَجّاً بما في بحرِك المكفوف(1)
بمزاج تسنيمٍ تعلُّ به البرى محمود طالعة المغبّ كثيف(2)
لا ينثني لعظيم ما اجْتَرَحَ الورى من سوء معتقَدٍ وشُؤم قروف(3)
هي أمة مرحومة ونبيّها الرحمةُ المهداة للملهوف
هو قد دعاك لها بأن لاتَرّدَ بالسّـ ـنةِ الجماد وكان جِدَّ رؤف(4)
فأجبت دعوته وأنت مُجيب مَن يَسْتَعْفِ أو يَسْتكْفِ منْجم خوف(5)
فأجبْ دُعانا يا كريمُ فإننا ضعفاءُ تكفَّل بالمنا وخريف
كم نعمة لك لا يُقام بِشُكْرها وأَلْثِتَ واصِلَها بلا تطفيفِ
فَأدِم خمائلَ ما مَننْتَ به ولا تَقْطَع عوائدَ بِرِّك المعروف
يا رب يا ربّاه يا مَنْ عَمّ بالتكليفِ والتعريفِ
فَرِّج كروبَ المسلمين فحاجهم وَقِفْ عليك وضِيعهم وشريفِ
بجلالك الأشتى بذاتِك بالسّنى بجمالِك الأبهَى بلا تكييفِ

* * *

(1) ثجا: أي صبا، وتمرى: تدر، من مرى الناقة يمريها، إذا مسح ضرعها لتدر.

(2) البري الأرض والمغب العاقبة.

(3) القروف: الكثير البغي.

(4) السنة التي لم يصبها مطر.

(5) منجم: الطريق.

وهذه قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم للعلامة محمد محمودالاروراني.

من البحر الكامل:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

هـذي مـعـالِمُ طِـيْـبَـةَ الأنـوارِ ... لاحَـتْ لـنـا والـحـمـدُ لـلـجـبّـار
هـذي الـنـخـيـلُ لِطيبَةٍ وربوعها ... مَثْوَى النبيِّ المصطفَى المُختارِ
هـذي ديـارُ مـحـمـدٍ وبـلادِه ... خـيـرُ الـبـلادِ وخـيـرُ كُـلِّ ديـار
هذا البقيعُ وذا المُصَلَّى حبّذا ... بلدُ الحبيبِ خَيَارُ كُلِّ قرار
بَلَدٌ به سَكَنَ النبيّ وآلُه ... ومُهَاجري الأصحابِ والأنصار
بلدٌ به جبريلُ كان مُردداً ... ومُنزّلاً لِلْوحْيِ والأسرار
يا نفسُ هذا وقتُ وصلكِ فارتَعِي ... وتَمَتَّعي في رَوْضَةِ الأزهار
يا نفسُ هذا قبرُ أحمدَ سَلِّمِي ... وَسَلِي المُرادَ به على التَّكْرارِ
يا خَيْرَ خَلْقِ الله جئْتُكَ زائراً ... أرجو رِضَاكَ بِحُرمةِ الزُّوّار
فَلَكَ السلامُ من المُهَيْمِن دائماً ... ولِصَاحِبٍ لك في ظلامِ الغَار
ولِصاحبٍ وخليفةٍ لكُما أبي ... حَفْص مُبِثُّ الدين في الكُفَّار
يا رب إني ليس لي إلا الدُّعَا ... مُتَوسّلاً لك بالنبيِّ مَزَاري
وَظَلَمْت نَفسي ثم جئتُكَ تائباً ... مُتَشَفِّعاً به بَعْدَ الاستِغْفَار
إني مُقِرٌّ بالعيوبِ جميعُها ... فاقبَلْ مَتَابِي وارْحَمَنَّ أعْذَاري
واغْفِر ذُنوبيَ كلَّها فيما مَضَى ... والحَالِ والآتي على استمرارِ
ثَبِّتْ بِلوْحِكَ يا كريمُ سَعادتي ... وكَذاكَ توفيقي وجَبْرُ عِثَاري
وَأَجِبْ دُعائي في هنا وبكل ما ... وَقْتٍ بيومٍ أو دُجَى الأسْحَارِ[1]
أنت الذي بَشَّرتَنا بإجابةٍ ... في قَوْلِكَ ادْعُوني وفي الآثارِ

(1) بكل ما وقت ما زائدة.

أنت الذي بَشّرتْ وَصْلِي بالمنى ... من شَاسِع البُلدان والأقْطَار
وبك النَّسيمُ لنا بروضةِ جَنَّةٍ ... قَد فاح فَوق المِسكِ والأعْطَار
يا خَاتَمَ الرُّسْلِ الكرامِ قصدتكُم ... مُتَوسّلاً بكَ في قَضَا أوطَاري
أرجو من الله الكريم بجاهكم ... غُفران ذنبي أول أوطاري[1]
وهُدى لنفسي لا ضلالَةَ بَعْدَه ... وسلامةً من كُلِّ مَا الأخطار
والحِفظُ للعلم النَّفُوع جَميعُهُ ... والفَهم فيه بِكُلِّ مَا الأشطار
وَتُقىً يُزيل عُيُوبَ نَفْسِي كُلَّها ... وثبوتها بطريقة الأبرار
حتى يرى هَذيَ النَّبي جِبِلَّتي ... وَشعَاري القرآنُ مثل دِثَاري[2]
مع طولِ عُمرٍ في العِبَادة دَائِماً ... وَهِدَايَةُ الجُهَّال والفُجَّار
وغنىً أدوم على أداءِ حقوقه ... مع صالِحِ الأولاد والأذراري
ووقايةً في الدين والدنيا وفي ... وضعي بقبري خَمْسَة الأشْبَار
والحفظ من نفسي وإبليسي الهوى ... ومن الدَّنَى والذُّل والإعْسَار
وقَضاءُ كُلِّ مآربي ومَقَاصِدي ... وحوائجي في ذي وتلك الدَّار
ولوَالديَّ جميعهم ومشائخي ... وقَرابَتي كُلاً مَعَ الأصْهَار
وأحِبَّتِي والمُسْلِمين جَميعُهُم ... ولكلِّ مَنْ أوْصَى ومَن في الجَار[3]
أرجو بِجَاهِك للجميع شفاعةً ... والعفوَ والغُفرانَ من غَفَّار
ورِضَا الإلهِ لكُلِّنَا وسلامةً ... مِنْ كُلِّ خِزْيٍ أو عذابِ النار
بل لا وَجَاهُكَ عند ربِّكَ فضلُهُ ... قَدْ جَاء في القُرآن بالأشهار
أنتَ الذي مِن نُورك الأنوارُ قَدْ ... خُلِقَتْ وكل الفَضْلِ والأخيار
والأنبِيَا قد أُخبِروا بِكَ كُلُّهم ... وَتَوسَّلوا بِكَ عِنْد ذا القهّار
وَوُلِدْتَ تذكر ساجداً مُتَطَهِّراً ... حقاً مِنَ الأدْنَاس والأقْذَار

---

(1) أوطاري: مخفف طاري.

(2) الجبلة: الطبيعة، والشعار: ما يلي الجسد من الثياب.

(3) الجار: الجوار.

في ليل مَولِدِك العظيم تَسَاقَطُ ال أصْــنَــامُ والـكُــهَّــانُ بـالإدْبَـار
والنار قد خَمَدَتْ وغَاضَتْ ساوةٌ وانْـشَـقَّ إيـوانٌ لِـذِي الأشـرار
والقَلْبُ وقتَ صِبَاك شُقَّ تطهراً مِـن حَـظِّ شـيـطـانٍ وذي الأغـيـار
مَلَئوه بالعلم الحقيقي حِكْمةً فَـبـدَا هـنـاك الأمـرُ بـاستـقـرار
والفيءُ مَالَ إليكَ بَعدَ غَمَامَةٍ قـد ظَـلَّـلَـتْـكَ بـرؤيـة الأبـصـار[1]
فَلَكَ السِّيَادَةِ في الوَرَى أرسالُها أمْـلاكُـهـا والأنْـبِـيَـا الأصـدار
ولَكَ الرِّسَالَةُ في الخليقة كلِّها مِـنْ مَـسَـالِـكِ الإيـرادِ والإصـدار
أنتَ الذي عَرَقَ البُراقَ لِفَضْلِه فـي لَـيْـلَـةِ الإسْـرَا لـربٍّ سـار[2]
وَبَلَغْت ما لم يَبْلُغَنْ مَلائِكَ وعَلِمْتَ ما لم يَعْلَمَنْ القاري[3]
رَفَعَ الحجابَ حجابَكم وَدَنَوْتَ مِنْ قُـرْبٍ بـلا كَـيْـفٍ ولا إحْـصَـار
أوْحَى إلَيْكَ أوَامِرَا ونَوَاهِيَا وعـبـادةً جـاءت عَـلَـى الـمِـقْـدَار
فَأتَيْتَ بالقرآنِ أعجَزَ مَا يُرى بِـشَـرِيـعـةٍ طُـهِّـرت مِـنَ الأكْـدَار
أهلُ البلاغة والفصاحة كُلُّهم عَـجِـزُوا ذوي نَـثْـرٍ وذي أشْـعَـار
بل أعجز الثقلين عن أن يأتِيَا مِـنْ مِـثْـلِـه فـي أيِّـمـا الأعْـصَـار
فانْقَادَ مَنْ شاءَ الإلهُ صلاحَهُ بَـاء الـكَـفُـور بـعَـجْـزِه وَوبَـار[4]
ثُم العِدَا أعْدَاكَ عَادُوا كُلُّهُم بِـدُعَـاك صَـرْعَـى فـي قَـلِـيبِ تَـارِي[5]
قَدْ مَدَّكَ المَوْلَى بِجُنْدِ مَلائِكٍ قَـطَـعُـوا أُصُـولَ الـكِـفْـر بـاسْـتِـصْـغَـار
فَانْفَلَّ جَمْعُهُمْ بِدينٍ حقيقةٍ تَـعِـسُـوا لَـعَـاً لَـهُـمْ بـكُـلِّ الـعَـارِ[6]

---

(1) الفيء: الظِّل.

(2) القاري: مخفف القارىء.

(3) قوله لربٍّ يتعلق بسار، الذي هو حال، ووقف عليه بالسكون ضرورة أو على لغة ربيعة.

(4) وبار: رجع عن غيه.

(5) في قليب تارى أشار إلى موقعه بدر التي كانت أول لقاء بين الإسلام والكفر.

(6) انفل: انهزم وتراجع.

فَسَقَيْتَهم سُمَّ الحُسَامِ بهذه   وبتلك سُقْيَاهُم بِعَانِي القَار[1]
والله أظْهَرَ دِينَه بظهوركُم   حقاً عليهم أيّما إظهار
فهناك قد مات الحسودُ بِغَيظِه   ولَبِئْس مأوى الْغادرِ المَخْتَّار[2]
أما الذين هَدَاهُمُ الهادي إلى   نورِ الهُدَى قَد آمنَوا بِوقَار
والله مَنْ عَلَيْهم إذْ أخْرَجُوا   غَيْهَب الخُسْرَانِ والأوقَار[3]
فأجاب كلهمُ دُعَاكَ بِبَذْلِهم   للنَّفْس والأمْوَال بِاسْتِنْفَار
قد جَاهَدوا والله دُونَ غَنيمَة   لِحَيَاتِهِم في المَوت دُونَ ضِرَار
ولك انْشِقَاقُ البدرِ جاء مثبتاً   في المُسْنِدات صحيحة الأخبار
كَمْ مِن عَلِيل قد شَفَاهُ شِفَاكُم   وَبِلَمْس رَاحَتِكُمْ بِفَضْلِ البَاري[4]
وكذاك نَسْجُ العَنْكَبُوت بغَارِكُم   وَعَجَائِب في الغَارِ لِلأفْكَار
أنتَ الذي نَبَع النَّمِير بكَفُّه   قَدْ فَاقَ مَاء البَحْرِ والآبَار[5]
والشاةُ درّتْ والحجارةُ سلّمَتْ   والجِذْع حَنَّ كَمَشْيَة الأشْجَار
والذّئبُ أعْجَبَ من فَصَاحَةِ قَوله   والضّبُ أعْرَبَ عَنْك بِالإقْرَار
وانْهَلَ قَطر السُحُب عِنْدَ دُعَاكُمْ   في سَبْعَةٍ بِالوَبْلِ والمِدْرَار
حتى أتَاكَ مُرِيدُهَا إذْ مَلّهَا   فَدَعَوْتَ فانْجَابَتْ إلَى الأغْوَار
وكَذَا الذّرَاعُ بِسُمّه أبْدَى لَكُمْ   وَشَكَا البَعِيرُ إلَيْكَ بِالإكْثَار
والبِئرُ فِيهِ مُلُوحَةٌ وبتفلة   قَدْ صَارَ حُلْوى دُونَمَا إسْكَار
وَكَذَا الغَزَالَةُ سَلَّمَت وَبِكَفُكُم   صَمُّ الحَصَى سَبّحنَ بالإذْكَار
وَجَرِيدَةٌ صَارَتْ أشَدَّ مهند   مَنْ لَمِس كَفّكِ دُونَمَا إنْكَار
والعَيْنُ نَائِمَةٌ وَقَلْبُكَ نَاظِرٌ   والعَقْلُ لا يَسْهُو عَنِ التّذْكَار

---

(1) القار: القطران، والأني: البالغ النهاية في شدة الحرارة.

(2) المختار: الغادر.

(3) الغيهب: الظلمة، والأوقار: الأحمال، جمع وقر.

(4) الباري: مخفف.

(5) النمير: الماء العذب.

أشْبَعْتَ أفْوَاجاً بِمُدٍّ وَاحِدٍ   وَسَقَيْتَهُم بِأنَامِلِ الأمْطَار
لا ظِلَّ لا أثَراً لِمَشْيِكَ سَيِّدِي   وَالطُّولُ يَقْصُرُ مَعْكَ فِي التَّسْيَار
كَمْ آيَةٌ لَكَ لا تُحَدُّ لِوَاصِفٍ   آيَاتُكُم جَلَّتْ عَنْ الأسْفَار
فَلَكَ انْتَهَى فِي الفَضْلِ كُلُّ فَضِيلَةٍ   وَلَكَ انْتَهَى فِي الفَخْرِ كُلُّ فَخَارِ

* * *

من ألوان الشعر الصحراوي

الوعظ والإرشاد:

شاعر الصحراء هو لسان حال أهله، تارة يهجو أعداء بني جلدته وتارة أخرى يمدحهم، وثالثة يعظهم ويرشدهم، فإذا لمس منهم ممارسات خاطئة فهو المراقب لهم في تحركاتهم وسكناتهم. فهذه القصيدة التي أعرضها للعلامة الصوفي الشيخ المختار بن أحمد الكنتي أحسّ من خلالها أنه لمس تكالباً على الدنيا ولذّاتها الفانية فأخذ يذكّر بأن كلَّ نفسٍ ذائقةٌ كأسَ الموت مثلما قال الشاعر.

الموت كأسٌ كل الناس ذائقه والقبر دارٌ كل الناس ساكنه

وكأنه يستأنس بقول اللّه تعالى: «بسم اللّه الرحمن الرحيم كُلّ نفس ذائقة الموت وإنما توَفَّون أجورَكم يومَ القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلّا متاع الغرور» صدق اللّه العظيم.

فشاعرنا عالم صوفي وشاعر، وبذلك توافرت له الأساليب كافة، يطلب من أبناء جلدته أن يتزودوا بالتقوى والعمل الصالح.

* * *

بيتان للشاعر الصوفي الشيخ المختار بن أحمد الكنتي رحمه اللّه:

باب المهيمن كل الناس داخله واستشعر النفس أن الموت تأتيها

وارحل بزاد من التقوى تقدمه واستصحب العزم إنه مواتيها

* * *

كتب الشيخ باي بن عمر هذه الوصايا الصالحة المفيدة إلى أمير من الأمراء قائلاً له:

«أُوصيك بتقوى اللّه ونفع المسلمين وعدم السعي في مضرة أُحد، فإن نفعتهم حالت عليهم الرحمةُ، والساعي في مضرة أحد منهم متعرض للنقمة واللعنة، ولا تغفل عن ذكر اللّه في جميع أحوالك، واجعل أمره أمامك، ولا تغفل عن ذلك فيؤويك اللّهُ من رحمتهِ أعاذك اللّه من ذلك ولا توسع بطنك لأموال الناس فإن بطناً امتلأ منها حقيق أن يمتلىء من النار ويحل صاحبه البوار وما رخصت لك فيه أو رخص لك أحد فيه كائناً من كان فاستفت فيه نفسك واقتصر منه على الأوسط واحذر من ضلال المسلمين ففي الحديث الصحيحُ: «ضالةُ المؤمن من حرق النار».

* * *

وقال أيضاً:

أوصيك بتقوى اللّه ولا تكن من الغافلين فاحفظ الصلوات والأوقات والأذكار والدعوات، وَصِلِ الرحمَ، واصبِرْ على الرعية، ولا تأكل حقوقها، وتذكر الموت وحسرة الفوت والمصير إلى التراب وفجأة الموت وظلمة القبر وبلاء الجسد ومصيره للدود والقيح والصديد. واشتغل بما ينفع في ذلك عن لذّات هذه الدار الفانية فلا تشغلك هذه الشواغل التي هي سراب عن ذكر اللّه والعمل لوجهه وأداءِ الصلاة بطهارتها في وقتها، ولا تطل الأمل وتترك العمل فإن الأمر جدّ ولعل الأجل حضر وأنت عنه غافل. فعليك بتقوى اللّه والسعي في مصالح المسلمين قولاً وفعلاً فذلك هو أفضل عبادتك وسبب نجاتك. قال صلى اللّه عليه وسلم: السلطان ظل اللّه في الأرض يأوي إليه كل مظلوم من عباده فإذا عدل كان له الأجر وعلى الرعية الشكر وإذا جار كان عليه الاصر وعلى الرعية الصبر إذا

جارت الولاة قحطت السماء وإذا ضاعت الزكاة هلكت المواشي، وإذا ظهر الزنا ظهر الفقر والمسكنة. قال صلى اللّه عليه وسلم: «من وَلِي من أمر أمتي شيئاً فحَسُنَتْ سريرته رُزقَ الهيبة».

الفصل السادس

الشعر في مدح وذم الشاي!!

مدح الشاي وذمه

لون جديد تغنى به شاعر السودان الغربي ألا وهو ما يُعرف بالأشاي خمر الصحراء:

الرجل في جنوب الصحراء لا يهمه في يومه إلّا شيئان: شربُ الشاي الأخضر في الصباح مع صحن من اللحم المشوي. وقد سألت العديد من أهالي تنبكت عن عادة تناولهم للشاي واللحم المشوي يومياً فأجابوني: وكيف لنا أن نقاوم عنت الصحراء؟

والرجل الصحراوي عُرفَ بالكرم المُفْرط، فأول ما يقدمه لضيفه كوب الشاي الأخضر، وهو يعد عندهم رمزاً من الرموز التي لها وقع في أنفسهم. فرجل الصحراء يستطيع أن يبقى بدون أكل لفترة من الزمن ولكن لا يستطيع أن يبقى بدون شرب الشاي، وبذلك نجدهم دائماً يبحثون عن بديل للشاي بحرق الحلبة بدلاً من الحشيشة[1] أو بحرق نبات الزعتر إلخ...

وهذا شاعرنا عيسى بن محمد يطري الشاي بقصيدة تحرك بها وجدانه تتكون من خمسة عشر بيتاً:

مطلعها:

إن الأشـــاي لـــمـــذبـــة لـــلـــعـــار   عـــن كـــل ذي قـــدر مـــن الأخـــيـــار

(1) الحشيشة: هي المادة التي يصنع منها الشاي.

ويقول شاعر آخر يمدح الشاي وهو الشاعر بن الصادق في قصيدة تتألف من ثمانية عشر بيتاً:

ألا لهف نفسي من مبيتي ليلة	على القرّ والمفتول ناءٍ وشاسعُ

* * *

ويقول الشاعران سليمان الحوات والخليفة بن المصطفى أبياتاً في نفس المضمار. فأدباء الصحراء منهم من يمدح الشاي وما أكثرهم، وهناك من يذمّ شاربه ويعتبر شاربه فعل بدعة شنيعة. من بين هؤلاء الشعراء الفقيه محمد إفالت نظم قصيدة تتكون من تسعة أبيات مطلعها:

اتاءِ شاربه يلهو كسكرانا	ولا يزالُ من الضلال حيرانا

* * *

ورد عليه الشاعر عيسى بن محمد بقوله:

أتاي من نِعَم الرحمان مولانا	لا ينبغي كفرها سراً وإعلانا

* * *

وما احتفل شاعر الصحراء بالشاي، إلّا لقيمته ذلك أنه يشكل غذاء تفوق فائدته التغذية لتحقق نشوة خاصة، يتذوق معها الصحراوي كل معاني الأصالة والارتباط بعادات وتقاليد وتاريخ بلاده.

ويقول عيسى بن محمد:

من بحر الكامل:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

إن الأتـا لـمـذبـةُ لـلـعـار	عن كـلّ ذي قـدرٍ مـن الأخـيـار

هو عُدة للضيف حقاً سيما — مَن كان ذا عِلْم وذا مقدار
فعليك بالمفتول لا تركن إلى — ما دونه فحذار منه حذار[1]
لا تغترر بسواهُ من كمكركب — فتعده للشرب أو للعار[2]
والزَمْ من المفتُول أجودهُ وكُن — للماء محترساً من الأكْدَار
وتجنّب النعناع فهو مكدِّر — طعم الأتاي الأجود المختار
ولتلتزم تكميلَ آلةِ شُربه — كالطبل والبراد والمجمارِ[3]
وكؤوسه والزيف والمغراج مع — تنظيفها كلاً من الأقذار[4]
واحْذَر من الإبريقِ فَهو مُكَدِّرٌ — إلَّا إذا كُنْت في الأسفار
والزم إدامة شربه وقت الضحى — وعشيةً تسلَم من الإقتار
بجماعة فضلاء يُحسن حالُها — وحديثها صافٍ من الإضجارِ
وأقِمْهُ حتماً للأفاضل حيثُمَا — وَافُوكَ تسلُك مسلك الأحرارَ
يا رب فارزقنا حلالاً وأهدِنَا — واغفِرْ لنا ما كان من أوزار
ثم الصلاة مع السلام على الذي — قَدْ جاء بالبُشْرى وبالإنْذار
والآل والأصحاب خيرُ أولي النُّهى — والتابعين أُولي العلى الأبرار

* * *

(1) المفتول: من أجود أنواع الشاي.

(2) المكركب نوع من أنواع الشاي والعار كلمة حسانية معناها الضيوف.

(3) الطبل والبراد والمجمار أدوات الشاي.

(4) الزيف المنشفة والمقراج أداة من أدوات الشاي.

ويقول حتحا بن الصادق:

من بحر الطويل:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

ألا لهف نفسي من مبيتي ليلةً ... على القرْ والمفتولُ ناءٍ وشاسعُ[1]

مبيتٌ يُضاهي ليل صبٌّ تدعُهُ ... وساوسُ تجري من لظاها المدامعُ[2]

إذا المرءُ لم يعدم شَذَاهُ فإنهُ ... تناهت لديه بالهموم الدوافعُ[3]

وبينا أُمنِّي النفس وافيت فتيةً ... ومغراجهم وقت الغدية طالعُ

وكاساتُهم صف على الطبل واحدٌ ... وبرادهُم بين الأحبة لامعُ

كما يلمع البدرُ التمامُ وحولَه ... نجوم الدراري حين تصحو المطالعُ

رموا فيه كيل الكأس ممّا تضمّنت ... بوابر بحر سبقُه الشاه شائعُ[4]

وجرد ذو درعين بيضا نقيةٍ ... وخضراء ذاك الوصفُ للفضلِ جامعُ[5]

وتبسم في ذاك الكؤوس كأنها ... ثُغور العذارى حين تُنضى البراقعُ[6]

فلما رشفتُ الكأس منها تفتقت ... ينابعُ شعرٍ من طويل هوامعُ[7]

فقالوا: أعننا بالدليل، فإنّنا.. ... تظللُنا منها السُّيوفُ القواطعُ

فقلت لهم يكفي لنا كل مُسكرٍ ... حرام فمفهومٌ له لك شافعُ

أليس بيت اللّه يشربُ دائماً ... كما قاله الحجاج واللّه مانعُ

له من هوى الطاغُوت بدونها ... يُصلى به إلّا علته الرّوادعُ

---

(1) القرو الضمر: شاسع بعيد.

(2) الصبا: العاشق، وتدعه: تدفعه دفعاً عنيفاً.

(3) شذاه: رائحته.

(4) كيل: الكأس: ملؤه.

(5) ذو درعين: معناه حجر السكر في لفافتين من ورق أخضر.

(6) البراقع: جمع برقع ما تضعه المرأة على الرأس.

(7) هوامع: سوائل.

سوى الباطن الذي له ليس وحده كفيلٌ ولا منه الأتى والمجامعُ
ولا غرو أنّ الماءَ يسمع صوتَه قليلاً وفي ملءِ السقا هُو هاجعُ
كذلك إنكار المسائل صادرٌ من الجهلِ، والجهالُ قدماً تنازعُ

* * *

ويقول الشاعر سليمان الحوات:

من البحر الطويل:

مفعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

وهيموا بشربكم أتاي فإنّهُ حلال وليس في الحلال ملامُ
وكونُوا عليه مدمنين فإنهُ شفاءُ النفُوس إن عراها سقامُ
يثير نشاطاً يبسط الكفَّ بالندى فمن ثمّ كلُّ شاربيه كرامُ
إلى غير هذا من منافع جربت وقا بها في السالفين إمام

* * *

ويقول آخر:

من البحر الطويل:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

شربنا كؤوساً يعلم اللّهُ أنها تُهيجُ للعشاقِ ما في الضمائر
منعنعةٌ حمراءُ كالخمر طعمها ولا عيبَ فيها غير جبر الخواطرِ

* * *

ويقول الخليفة بن مصطفى:

من البحر الطويل:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

إذا لم نجد إلّا النميلة مشربا   شربنا ولم نعبأ مقالة ذي عذل[1]

فإن وُجد المفتول قُلنا لنملةٍ   مقالتها للنّمل في سورة النَّملِ

* * *

ويقول آخر:

من البحر البسيط:

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

الضيفُ دون الأتاي اليوم مُكرمهُ   لم يجد شيئاً وإن جلّت فوائدهُ

ومن سقى ضيفه الأتاي أكرمه   ولا يُعاب وإن قلّت موائده

بذا جرتْ عادة الأيام وانحسبت   والدهر لا بد أن ترعى عوائدهُ

* * *

الفقيه محمد أفالت حرم التاي وجعل شربه بدعةً شنيعةً، ونظم في ذلك قصائدَ منها قوله:

من بحر البسيط

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

أَتاءِ شاربهُ يلهو كسكرانا   ولا يزالُ من الضُّلّال حيرانا

---

(1) النميلة: نوع من ورق الشاي/ قوي المذاق.

أَتاءٍ لم يكُ من أفعالِ سيدنا — وتاليه ولا من فعل عُثمانا
ولا عليٍّ ولا الأصحاب كلّهم — والتابعين لهم عدلاً وإحسانا
ولا إمامُ بحمدِ اللّه مسجدُهُ — ولا مِنَ الغُرّ من أبناءِ موسانا[1]
أتاء بدعة أقوام سيُورِثُهم — من بعدِ مشربِهم فقراً وخُذلانا
وإن أتاهم خليلٌ ناصِحٌ لهُمُ — عضّوا أناملَهم ظلماً وعُدوانا
إذا أتَوْا رجلاً سمحاً خلائقُهُ — ولم يروا مخرجاً جفوةً مجّانا
يذمُّ بعضُهُم بعضاً إذا نفدتْ — أوراقُهم يحسبُون العُدمَ حرمانا
وهم يمتُّون والإقتار شيمتُهم — على الكرام إذا يُعْطُونَهم كانا[2]

* * *

ورد عليه عيسى بن محمد بقوله:

من البحر البسيط:

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

أتاي من نعم الرحمان مولانا — لا ينبغي كفرها سراً وإعلانا
أتاي من أطيب الأرزاق جوّزهُ — دينٌ قويمٌ عن المختار وافانا
فالأصل في كل شيءٍ الإباحةُ ما — لم يظهر المنع تحقيقاً وإتقانا
أتاي حلوٌ حلالٌ زينةٌ وردت — في مثله آيةٌ نَصاً وتبيانا
قد أجمَع المسلمون اليومَ قاطبةً — على إباحته بيضاً وسودانا
وليس من بعد دين ريبةٌ وكفى — بالنص نهجاً وبالإجماع برهانا

---

(1) حمد اللّه تقع في مملكة ماسنة، وهي عاصمتها أيام الشيخ أحمد بري وأولاده، وموسانا جد لعلي بن النجيب.

(2) كان وإنكان: نوع من الكؤوس صغيرة الحجم يستخدمها أهل الصحراء في شرب الشاي وهي مثل كؤوس الشاي الليبي.

لا يمتري اليوم في استحسانه أحدٌ إلّا ذوو البخل أو من كان حيرانا
به قضى العرف وهو من قواعدنا أصلاً إذا وافق المنهاج ميزانا[1]
فالضيف ببهجة البخلّ يطربه والعرض يحصنه بالحزم إحصانا
فلا يفرط فيه غير ذي عته غُمر جهُول عن الخيرات قد بانا[2]
ألا فمن يجتنبه اليوم قد نزعا ثوب المروءة والإحسان حرمانا
من كان ذا همة فليلتزم أبداً تطليع مغرجة للناس إدمانا[3]
فهو الضيافة والإحسان أكمَلَهُ من لم يُقَدِّمْهُ للأضياف قد هانا
ومن سقى ضيفَه كأساً على عجل فقد أصاب ولو في كأس إنكانا[4]
ومن يداوم على تعجيله كرماً للزائرين فلا يَعُد خوّانا
يا صاحب الحزم لا تترك تعاطِيَه فإنه يَقْلِبُ الأعداءَ إخوانا

* * *

(1) من قواعدنا، أي معشر المالكية.
(2) ذي عته: ذي حمق، والغمر: من لم يجرب الأمور.
(3) تطليع مغرجة: إغلاءه.
(4) انكان وكان كأس صغير.

الفصل السابع
أدب الرسائل

نماذج من كتابة الرسائل والرد عليها
عند أدباء الصحراء

1

رسالة من الحاج أبي القاسم
ابن الحاج محمد بن أحمد البليلي
إلى سيدي بو عمامة بن سيدي محمد بن الحبيب

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وسلم،

محبّنا في الله وأعزّ الناس عندنا السيد الفاضل، سيد أقرانه المكرّم سيدي أبو عمامة بن سيد بن الحبيب. الكتاب إليك من عند محبك على الدوام الحاج أبي القاسم بن الحاج محمد بن أحمد البليلي. ألف سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وعلى جملة من معك وإليك وإن سألت عن ماذا ضاع لك على يد أبناء أحمد بن محمد البوثقي لليوم ما جبروا شيئاً لأجل اليهود فلهم ولا صار عندهم شيء ولا أحد فيض شيئاً لا البشير ولا غيره وأمر الشريعة ما خاطبناه خائف عن مضيع حقهم، وهذا كثير الناس يبغون منه كما في شريف علمك، والحاج محمد بن ففة تلاقينا معه يوماً وراح وهو قاعد في جعبوب عند المرابط واليوم إن كتبتم أنتم ووالدك لأخوان البشير لعله يسلك، وأما أخوهم ما نظن يصير منه شيء هذا إذا كنتم يعني يخسرون من عند أنفسهم ونعلمك في الخلطة التي بيني وبينك ترى العقد أرسلناه لأخينا الحاج محمد إذا أوجدت الذهب ذاك المراد

لأجل عليه صار الكلام.

وأن ما تيسر يكون الريش حتى نسلك، ووصيتنا على المدفعة ستة عشر وجها وغدار ستة وجوه وعمايرهم اشتريناه أنهم عندنا في غدامس.

خائف أن أرسلهم لأجل ما، ثم من يحتفظ عليهم ويتوكل كما ينبغي، والثاني على نظرك في قيمتهم وتسمع يأتي عليهم بحسابكم قوب ذهب والامانة محبوب كانت تحبهم أعلمني أرسلهم على يد عب وعلمناكم على قيمتهم والبضاعة التي عندك لي والتي هي الذهب أولى لنا لأجل عليه صار الكلام وإلا ما تيسر تدفع لأخينا الحاج محمد على ذمتك يباع في الطرابلس، وبقولي أنك ما بقيت اليوم تاريخ أواسط ذي الحجة 1201هـ.

2

رسالة من الأميركاوي بن السلطان أم علي إلى الشيخ سيدي المختار بن سيدي أحمد بن سيدي أبي بكر الكنتي.

الحمد لله الذي لا يَخْذِلُ من تولى: ولا ينصر عبد منه تخلى، والصلاة والسلام على نبيّه المصطفى وعلى آله الشرفاء وأصحابه أولي العدل والوفاء وبعد، فيسلم السلطان كاوي بن السلطان أم علي وسيلته لولي أمره ومالك نفعه وضره الشيخ سيد المختار بن سيد أحمد بن سيد أبي بكر الكنتي قائلاً: سبب أشخاص البراءة «الرسالة» إلى ساحتك الفسيحة ومنارتك الرفيعة المستضيئة إعلامك أن قد بلغَنا قولك البليغ وكتابك البديع، أكد لنا استقامة رأيك وعقلك ووجور علمك وفضلك، فقابلناه بما هو أهله من الترحيب والتقبيل وحسن الطاعة والتبجيل، فاستقرأناه بحسن الاستماع حتى أخذ منا بمجامع الطباع، وخضعت له الأعناق لما فيه من عجائب الأعلاق ففهمنا ما فيه من التنبيه لا التمويه وقلنا متبرئين مما عسى أن يظن بنا من الموجرة على الوقيعة المعهودة التي لا نعدُّها إلا من الأمور المحمودة، فإن الرأي ما رأيت والأساس ما بنيت.

إذا قالت حزام فصدّقوها　　فإن القول ما قالت حزام

واعلم يا شيخنا ووسيلتنا إلى ربنا أن قلوبنا من التعلق بما لا ترضاه سليمة. فمعاذ الله أن تنسب إلى الأولياء مِنْ أحدٍ منا جريمة. فلا والله ما حملنا فعلتك إلا على السداد وأنها من نتائج التوفيق والإمداد، فمن أين الدير وأعزتك داعية اليقين بفل سيوف من خلعوا ربقة الديانة عن أعناقهم وحسبوا فلا بد المكر والبغي أحسن أطوافهم، بل أبطلنا أراجيف المشاة وهو نابر خاريف الوشاة ولقد ارتكب أبناء حماد صعباً حيث سلوا من تلقائك غضباً وظلموا لك من شدة الحقد ركباً فقد توقعوا إن لم يقلعوا من ولي المتقين حرباً لجهلهم بقدرهم وجوازهم لطورهم وأما علي بن محمد بن رحال فليس ممن يباريك في المجال بل أمره عندنا سهل وسيصلك فيه قول فصل وهو أنه لنا بمنزلة المملوك الراعي وأنت بمكانة الوالد الشفيق المراعي. ولكل منكما ما يناسب مقامه من حب، فشتّان ما بين المقامين، وهيهات ما بين المحبين، ألا ترى أنه خفضت لأخمصك نفسي، أفأرفع عليك أحداً من أبناء جنسي فلقد قال رأي تشوّفت إلى ذلك ونقصت همتي أن استشرفت إلى ما هنالك، بل الحق الذي لم يشب بشائبة الشك والريب والله ولي الشهادة والغيب أنه راضٍ أن أشتري نزراً من رضاك بحذافير الدنيا فكيف بأدايتها، فهوّن عليك أمر هذا اللئيم ولو جفا، فإن الكريم إذا قدر عفا كيف يعز من اتخذ الدنيا سناداً والشيطان ركناً وعماداً والمكوس طرفاً وتلادا، أم كيف يهون من المعرفة إحساس بنياته، والموافقات قيد عيانه، والمخالفات معدن عدوانه، ومن كان مولاه، العزيز أعزه فلا يقدر أحد أن يهينه، هذا وقصارى أمره معنا أنا لما انتبذنا في أماكن كثيراً من أموالنا وشف جلبه غالباً على عمالنا رأينا أن نوليها ونستر عيبها من يقوم بأمرها، فوجدناه بذلك زعيماً ماهراً في سياسته، صابراً نفسه على رعايته من غير أن نطمعه بذلك في شف غبارك ولا أن نسمن ورمه ببدارك بل إنما هو في الخسة هو وأنت في الرفعة أنت وكيف يقاس العزيز بالرفيع؟ أم كيف يبارى الظليع بالضليع؟ فها نحن سيوفك

القاطعة ورماحك القامعة، فأصِبْ بنا مقاتلَ مَنْ أردت ووالِ بنا أولياء ربك، وعادِ بنا أعداء وليك. فالله ناصرك وخاذلهم وأما لآدم والسكاكنة الذين أرسلت إلي في شأنهم، فقد تركتهم لك رمضاً، ونفضت يدي من غبار صعيدهم نفضاً، فوالله لو سألتني ما بيدي من الدولة لنزلت لك عنها، وخليت أمرها. فمالي لا أرضى بذلك، وفوق ما هنالك. وأنا أرجو من الله أن يجعلك لي حرزاً مكيناً وحصناً حصيناً ويدفع عني بك وبذريّتك عاجلاً وآجلاً كل همٍّ وغمٍّ وشماتة عدو، وحسد حاسد، ومكر ماكر. أبقاك الله لنا وأبقانا لك، ولا رمي بيننا وبينك بسهم الفراق إلا بالمواطن والمباني لا بالأرواح والمعاني.

هذا وإني سائلك أمراً فلا عليك أن تتكرم به علينا وهو الرجوع إلى بلادك، والمباعدة محل بعادك، وأن تكون بمحلّ لا يُخفى علينا فيه أمرُك، كما كان قبل، وتعتزل الأرض المعرضة لثوران الفتن، فلقد جرّبناها ورأينا سكانها وأولي ولايتها من تدمكت وغيرهم يترامحون ترامح الحمر ويتآكلون فيما بينهم تآكل دواب البحر في اللج، وكفى في هذا المقام الإشارة دون طول العبارة.

والسلام.

3

رد على الرسالة من سيدي المختار بن سيدي أحمد ابن سيدي بن بكر الكنتي

يقول الشيخ: الحمد لله الذي لا رادّ لقضائه ولا غنى عن فضله وعطائه والصلاة والسلام على من أكرمه الله بحقائق آلائه وعلى آله وصحبه وعترته وأزواجه وأبنائه، هذا وانه من عبد ربه المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي إلى عيبة نصحه وكرشه ومحل محبته وأُنسه سلالة الأخيار والأبرار ومعدن الجود والفخار، ومحك رحال القاصدين من جميع الديار والأمصار من أينعت شماريخ مجدهم فَعَلَتْ وشَمَخَتْ معالم قدرهم فَجَلَّتْ، جماعة الأبناء والأحبة النصحاء ومن انْضاف إليهم ممّن ولاه الله جلَّ الأمور وعدها من أبناء كردن أدام الله عزهم ورفع مجدهم أخصّ من الجميع القاضي الهمام الناصح لجميع الأنام الصالح بن محمد البشير والأمير كاوي ألف سلام عليكما ورحمة الله وبركاته، أما بعد فموجبه إليكم أني بليت في هذه الأيام برعاع لئام لا يفقهون خطاباً ولا يردون جواباً أعماهم الجهل والحسد وأضلَّهم الهوى واللدد لا يفُون بوعد، ولا يثبتون على عقد. قد تحزبوا تحزب الخوارج على السلف. وتألبوا تألب النصارى على الحق فأطفأ الله جمرتهم بالرعب، وصولتهم بالغلب والسلب

فحميتُ السالم وتجافيتُ عن الظالم وما فعلتُ ذلك غضباً لنفسي ولا عداوة لهم بل سبب ذلك أنهم أغاروا على قافلة من فقهاء المغرب من غير سبب وتجردوا لكل نهب وسلب يخبطون في ذلك خبط عشواء ويتبعون فيما هنالك التسويلات والأهواء، فلما رأيت ما هنالك، وتبيّن لي أن منبع ذلك من كبيرهم حماد، أمرت أولمدن بالإغارة عليه وإهانته ليكفّ عما هو عليه من الحرابة، فلما أغاروا على غيره من قومه وجيرانه رددت عليهم أموالهم حتى الحبال كما سيخبرهم به الوارد عليكم فلما رجعنا من ناحية تنبكت بعد الإغارة على بنيه تعرض بعض قومه مستشفعين في رد أبله فرددتها عليهم بعدما أخذت عليهم العهود والمواثيق على الكف والأخذ على أيدي أبنائهم وسفهائهم فلم يفوا بشيء من ذلك بل قال عامة سفهائهم لا قوة لي ولا عون سوى أولمدن وأنهم متى ذهبوا ورجعوا إلى أهليهم فعلوا ما سوّلت لهم أنفسهم وزينته شياطينهم وتعاقدوا على ذلك فلما حققت ذلك بعثت إلى من بعثت إليه من كناتة لأريهم أنهم لا قوة لهم على ما هموا به وسولته أنفسهم فلما اجتمعوا على إذ بعركل انتصر إذ بعرار الحجل. فكففت الناس عنهم بند القدرة عليهم رجاء ثواب الله العظيم وتحرجاً عن أخذ أموالهم وسفك دمائهم فجاءني من كان يزعم التحزب منهم يتلطف ويدفع بالراح فقبلت ذلك منهم على أن يكفوا على الواردين والمسافرين ويراجعوا ما كانوا عليه من المسكنة وترك الحرابة فتحملوا ذلك والتزموا ما هنالك وإنما كررت طلب الخير منهم مع جناياتهم وعدم وفائهم أخذاً للحجة عليهم وليكون ذلك معذرة إلى الله تعالى يوم القيامة؟ ولقد ورد عليَّ كتاب من بعض صلحائهم أنهم نكثوا أيضاً في الرابعة لأن جميع من ينسب إلى الصلاح منهم معه حبلاً ومودة ومناصحة وقليل ملهم، ومن سواهم متعصب ما لم يخف فإذا خيفوا تبرأ بعضهم من بعض واعلموا أن كل تشغاين وكل تكنكنت وأكلاد البحر غزوا لآدم إلى آخر إملاء الواقعة ثم قال: «فلا تسمعوا قول واشٍ ولا ساعٍ

بخداع فإن القوم قد غشت قلوبهم ظلمات الفتنة، والهوى والحسد والمكر ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله» وقد استحلوا الكذب والبهتان جرأة على الله تعالى وجعلوا الظلم رباً ومفخراً مع ضعفهم وأصفق على ذلك عربهم وعجمهم وأشدهم في ذلك من يدَّعي العلم زيغاً وسفهاً وغِرّةً بالله وجهلاً بأحكام الله وسنة رسول الله. قال تعالى «الا لعنة الله على الظالمين» وقال «ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون» وقال «أنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها» وقال «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون». وقال صلى الله عليه وسلم «الظالم أحق أن يحمل عليه» وقال «رحم الله عبداً كان لأخيه قبله مظلمة من عرض أو مال فأتاه فتحلله قبل أن يأتي يوم القيامة وليس عنده دينار ولا درهم» وقال «من اقتطع حق أمرىء مسلم أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة» قال رجل: ولو كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال «ولو كان قضيباً من أراك» وقال «أوحى الله إليَّ يا أخا المرسلين أنذر قومك فلا يدخلون بيتاً من بيوتي وعند أحد منهم مظلمة من عبادي وعند أحد منهم مظلمة لعبادي فإني ألعنه ما دام يصلِّي بين يدي حتى يرد تلك المظلمة إلى أهلها» وقال الشاعر:

ولو بقي جبل يوماً على جبل لاندكَّ منه أعاليه وأسفله

وفي المثل: «من طال عدوانه زال سلطانه»، وقال معاوية إني لأستحيي أن أظلم من لا يجد عليّ ناصراً إلّا اللّه. وقال أبو العيناء كان لي خصوم ظلمة فشكوتهم إلى أحمد بن داود فقلت له قد تظاهروا عليّ وصاروا يداً واحدة فقال: يد اللّه فوق أيديهم. فقلت إن لهم مكراً. قال لا يحيق المكر السيء إلّا بأهله فقلت هم كثير قال: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن اللّه. وقال بعض الحكماء: أذكر عند الظلم عدل اللّه فيك وعند القدرة قدرة اللّه عليك ولا يعجبنك رحب الذارعين السفاك للدماء فإن له قاتلاً لا يموت، وقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم في حديث قدسي يرويه عن ربه قال: «اشتد غضبي على من ظلم من لا ناصر له غيري».

ولقد عالجت القوم أشد المعالجة لأني عالجتهم بالإحسان إليهم فلما لم يجد أمسكت ثم عالجتهم بالأعضاء والصفح عنهم فلم يجدِ فعالجتهم بالتهديد مع الامساك بعد القدرة عليهم فلما لم يجدِ فررت منهم لأن الفرار من ثوران الفتى واجب، قال الشاعر:

إذا شاع في أرض فساد ومنكر ... وليس بها ناه مطاع وزاجر

ففرّ ولا تقم بساحة بلدة ... يموت بها عرف وتحيى المناكر

فإن عقاب الذنب عند جفاته ... يخص وإن يظهر يعمم فالمحاور

واللّه يعلم نيتي فيهم وفي غيرهم خير العقوبة لهم، والعفو عنهم فإني لا أريد بالجميع إلّا الإصلاح ما استطعت قال اللّه تعالى: «فإن انتهوا فلا عدوان إلّا على الظالمين» ومن ذلك القاعدة الشرعية أنه يجوز قتل الثلث لإصلاح الثلثين وكذلك العقوبة المالية إذا جرت إلى كف المعتدين كما فعل النبي صلى اللّه عليه وسلم بتقطيع نخل بني قريظة حتى قالوا يا محمد تنهى عن الفساد في الأرض وتفسد فيها بنفسك فوقع في قلوب الناس شيء من قولهم فأنزل اللّه تعالى قوله: «ما قطعتم من لينةٍ أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن اللّه» إلى غير ذلك من القواعد الشرعية التي لا يشم رائحتها إلّا سماسرة العلماء. ولذلك جعل حركات العلماء وسكناتهم كلها عبادة لأنها مبنية على حق وحقيقة بخلاف الجاهل فإن عبادته جناية لخلوها عن التحقيق إذ ربما ظن المنكر معروفاً فأمر به وظن المعروف منكراً فنهى عنه، فالكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من اتّبع نفسه وتمنّى على اللّه الأمانة؟ وإياكم أن يختلج في قلوبكم غير هذا، فإني بلغني أن يعني المنافقين وشيء إليكم ببعض التمويهات في إذلالي حماد وبنية غرة وحسداً فلا تزكوا من جرحه اللّه وكذبه بقوله «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينّوا» فالنميمة على قسمين: سعاية، وهي ما كان إلى الأمراء على وجه الفساد في أخذ مال مسلم أو هتك حرمته، والنميمة إنماء الحديث بين المتحابين لإيقاع الفرقة

والشحناء وصاحبها وهو القنات، روي أن رجلاً سعى إلى بلال بن أبي بردة برجل وكان أمير البصرة، فقال له: انصرف حتى اكشف عنك فكشف عنه فإذا هو ولد الزنا. روي أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: «ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا بلى: قال النمامون المفسدون الأحبة الباغون البرك العيب وقال ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين، ملعون كل شفار ملعون كل فتات» وأما السعاية إلى السلطان فهي المهلكة الحالقة لما فيها من التغرير بالنفوس والأموال. لأنها تسلب العزيز عزه وتحك المكين عن مكانته، وللسيد عن مرتبته فكم دم أراقه سعي ساع فليتَّق اللّه ربه رجل ساعدته الأقدار، يصغي إلى سعاية ساع أو يستمع لنميمة نمام، لأن الرسول صلى اللّه عليه وسلم يقول: «شر الناس النمام ومصدقه شر منه» روي أن رجلاً كتب إلى الصاحب بن عباد بطاقة يستحثه فيها على أخذ مال يتيم وكان مالاً كثيراً وأجراً فكتب على ظهر البطاقة النميمة قبيحة وإن كانت صحيحة فالميت رحمه اللّه والساعي لعنه اللّه واليتيم جبره اللّه ولا حول ولا قوة إلّا باللّه العلي العظيم.

وقال بعض الحكماء احذر أعداء العقول ولصوص المودات وهم السعاة والنمامون إذا سرق اللصوص المتاع سرقوا هم المودات، وفي المثل: من أطاع الواشي ضيَّع الصديق وكل ذي نعمة محسود وكل واش كذوب، وكل منافق طعان لعان والثقة بمن لا دين له تغرير، واتهام ذي الدين حوب كبير وتصديق الكذوب زيغ وتكذيب الصدوق الحاد والدين صدق نصيحة والنفاق كذب وخديعة ومن لا أمانة له فلا تأمنه ومن لا نصيحة له فلا تستأمنه ومن سل سيف البغي قتل به، ومن حفر لأخيه بئراً وقع فيها، ومن داهى في الحق هان ومن لم يتدبر عواقب الأمور لان، ومن يتوكل على اللّه فهو حسبه ومن يتوكل على غيره ضاع كسبه.

روي أن معاوية كلّم الأحنف بن قيس في شيء بلغه عنه، فأنكره

الأحنف فقال معاوية: بلغه عنك الثقة فقال له الأحنف: إن الثقة لا يبلغ، وكان الفضيل بن سهل يكره السعاية وإذا أتاه ساع قال له إن صدقتنا أبغضناك وإن كذبتنا عاقبناك وإن استقلتنا أقلناك. وكتب في جواب كتاب ساع نحن نرى قبول السعاية أشد من السعاية لأن السعاية دلالة والقبول إجازة وليحسن من دلَّ على شيء وأخبره عمن قبله وأجازه، فاتقوا الساعي فإنه لو كان في سعايته صادقاً لكان في صدقه لئيماً إذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة، وقال المأمون النميمة لا تتصل بمودة إلّا أفسدتها ولا عداوة إلّا جددتها ولا جماعة إلّا بددتها، ثم لا بدَّ لمن عرف بها ونسب إليها أن يجتنب وتخاف معرفته ولا يوثق به في أمر.

قال الشاعر:

من نم في الناس لم تؤمن عقاربه ... على الصديق ولم تؤمن أفاعيه
كالسيل بالليل لا يدري به أحد ... من أين جاء ولا من أين يأتيه
الويل للعمد منه كيف ينقضه ... والويل للود منه كيف يفنيه

واعلم يا كاوي إني وفيت لك بما عاهدتك عليه من ترك الدعاء على ابن رحال زعماً منك أنك تكفه وتتولى منانه، وانه قد اشتغل بالخداع والتحليق في سلب الساكينة ولآدم النازلين علينا والله يخذله ويجعل كيده في نحره إذ تركهم لنا من هو أولى منه بهم وأقوى منه وأشد شركة من يغربه من يغرمه ويأخذ على رقبته المكوس وهم أولاد امبارك، فإن وفيت بما قلت فأنت وذاك وإن نكثت رفعنا أمرنا إلى الله فيما عودنا إليه وعلى غيره من النصر والظفر فإني لست بعاجز ولا كسلان ولا من تعود الضيم وخفارة الجار والمستجير فاستكن لذلك قال الشاعر:

إن الكريم يحلم ما لم ... يرين من أجاره قد أهينا

واعلموا أن حفظ الجار وحماية الذمار أمر واجب على الكرام دون اللئام وكانت العرب ترى ذلك ديناً تدعو إليه، وحقاً واجباً تحافظ عليه.

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: أن حلف الجاهلية لم يزد الإسلام إلّا تأكيداً قال اللّه تعالى «واوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً» وكان أبو سفيان بن حرب إذا نزل به جار يقول: يا هذا إنك اخترتني جاراً .واخترت داري داراً فجناية يدك علي دونك وإن جنت عليك يد فاحتكم احتكام الصبي في أهله، وكان الفرزدق بعبير أبيه غالب بن صعصعة. وفي ذلك المعنى يقول الشاعر:

هم يمنعون الجار حتى كأنما لجارهم بين السماكين منزل

ورأى أن رجلاً شيعياً كان يسعى في فساد الدولة العباسية فجعل المهدي لمنّ دل عليه أو أتى به ألف درهم فأخذه رجل ببغداد فيئس من نفسه فمر به على معن، فقال يا أبا الوليد فأخذوه منه كرهاً وأردفه بعضهم خلفه فذهب الرجل فأخبر أمير المؤمنين المهدي بالقصة فأرسل خلفه من يحضره، فأحضره فلما دخل عليه قال يا معن أتجير علي؟ فقال نعم: يا أمير المؤمنين قتلت في طاعتك يوماً واحداً خمسة آلاف فما أملك أن أجير رجلاً واحداً استجارني، فاستحى المهدي وأطرق قليلاً ثم رفع رأسه وقال: قد أجرنا من أجرت يا أبا الوليد. قال: إن رأى أمير المؤمنين أن يحبو جاره فيكون قد أحياه وأغناه، قال قد أمرت له بخمسين ألف درهم، قال معن ينبغي أن تكون صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية وإن ذنب الرجل عظيم قال الخليفة قد أمرت له بمائة ألف درهم، فرجع معن إلى منزله ودعا الرجل ودفع إليه المال ووعظه وقال له لا تتعرض لمساخط الخلفاء. وروى أن الجراد سقط قريبا من بيت ابن أبي حنبل فجاء الحي فقالوا: نريد جارك فقال أما إذ جعلتموه جاري فواللّه لا تصلون إليه، فسمّي مجير الجراد، وهؤلاء القوم قد استجاروا باللّه أولاً ثم بي وبك ثانياً. وقد خفر جوارنا رعاع من الناس قد تحزبوا حسداً وبغياً، وقد تحزّبوا على ذلك تحزب الخشاش، وتألبوا تألّب الفراش أن عاينوا خوفاً إذا بعروا وأن أنسوا أمنا اشمخروا ليس لعائيهم دواء إلّا التنكيل الممض والتشريد الملظ:

قال الشاعر:

لكل داءٍ دَوَاء يُستطب بِهِ إلّا عَدَاوَة مَنْ عَادَاكَ عَنْ حَسَد

وأنتم الأعوان والأخوان والأبناء وهم الأضداد والشناة والأعداء.

وقال الشاعر:

إذا كان أعداء عليَّ تناصروا فما ذاك إلّا من تخاذل أخوان

فإن أظهرتم لهم ذباب السيف كفوا عن الحيف فرجعت كل خارجة إلى جحرها وأقرت بعجزها وقدرها قد علم كل أناس مشربهم فهربوا مهربهم وإلّا فسيجري ما أرى إلى هزاهز يشيب لهولها الرضيع ويتمطع بسببها الصريع فالخرق يرقع قبل الاتساع والشيء إنما يحفظ قبل الضياع واللئيم لا يكف إلّا بالإهانة والكريم يكفّ بالإجلال والملاينة وليكن في علمك يا كاوي أنه لا لكلب غيرك ينبح عن غنمي الذئاب وقد تكاووا من كل جانب حسداً وعدواناً وبغياً وطغياناً.

قال الشاعر:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقي مربط المستأسد الضاري

وأرجو من اللّه تعالى أن يشتت شملهم، ويفرّق جمعهم، قال الرسول صلى اللّه عليه وسلم: «الحسود لا يسود»، وقال: «قاتل اللّه الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله»، وقال: «استعينوا على أموركم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود»، وقال: «الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له»، وفي الحِكَم: «الحسود غضبان على القدر». روي أن رجلاً من البادية دخل على المعتصم وقربه وجعله نديمه فنفس وزير الخليفة البدوي ذلك فحسده وقال في نفسه إن لم أقتل هذا البدوي أخذ بقلب أمير المؤمنين حتى يبعدني منه، فصار يتلطف بالبدوي حتى أتى به منزله، فطبخ له طعاماً فأكثر فيه من الثوم ثم ذهب إلى الأمير في فوره، فقال: إن هذا البدوي يزعم أنك بخر ودليل ذلك أنه إذا دخل عليك جعل طرف ردائه على فمه

مخافة أن يشم الأمير منه رائحة الثوم، فلما رأى الأمير منه ذلك، قال في نفسه: لقد صدقني الوزير فكتب الأمير إلى بعض عماله كتاباً يقول فيه، إذا وصلك حامل كتابي هذا فاضرب عنقه، ثم دعا بالبدوي فدفع إليه الكتاب، وقال امض به إلى فلان وائتني بالجواب، فأخذ البدوي الكتاب وخرج فلما كان خارج باب الأمير لقيه الوزير فقال: إلى أين تريد؟ قال وجهني الأمير بكتاب إلى عامله الفلاني. فقال الوزير في نفسه: إن هذا البدوي يحصل له من هذا التقليد مال كثير، فقال: يا بدوي ما تقول فيمن يريحك مما يلحقك من التعب في سفرك ويعطيك ألفي دينار؟ قال: البدوي أنت الكبير وأنت الحكيم ورأيي تبع لرأيك فناوله ألفين وتناول الكتاب من يده فركب الوزير من ساعته وسار بالكتاب. فلما قرأ العامل الكتاب أمر بضرب عنق الوزير، فبعد أيام تفكر الأمير في أمر البدوي فتعجب من ذلك وأمر بإحضار البدوي فقال: ما شأنك يا بدوي؟ فأخبره بالقصة التي اتفقت له مع الوزير، فقال له الخليفة: أقلت فيَّ أني أبخر؟ فقال: معاذ اللّه يا أمير المؤمنين أن أتحدث بما ليس لي به علم، وإنما كان ذلك منه مكراً وخداعاً، وقصَّ عليه إدخاله إياه منزله، ثم خلع على البدوي واتخذه وزيراً، وفي مثل هذا يقول الشاعر:

أيا حاسداً لي على نعمة ... أتدري على من أسأت الأدب
أسأت على اللّه في حكمه ... لأنك لم ترضَ لي ما وهب
فجازاك أن زادني في العطا ... وأغلق دونك باب الطلب

وقال غيره:

أصبر على قتل الحسو ... د فان صبرك قاتله

وقال غيره:

يا طالب العيش في أمن وفي دعة ... رغداً بلا قتر صفواً بلا أرق
خلّص فؤادك من غلّ ومن حسد ... فالغلّ في القلب مثل الغلّ في العنق

وقال الشاعر في آل المهلب:

آل المُهَلَّب قوم إنْ مَدَحْتَهُمْ كانوا الأكَارِمِ آباءً وأجدادا
إن العرانين تلقاها مُحَسَّدةً ولا ترى للئام الناس حسادا

وقال منصور الفقيه:

منافسة الفتى فيما يزول على نقصان همته دليل
ومختار القليل أقل منه وكل فوائد الدنيا قليل

ولما حسد أخوة يوسف، عليه السلام آل أمرُه إلى ما آل إليه من الملك الشامخ والعزّ الباذخ والاصطفاء والنبوة، فساقهم اللّه إليه من كنعان أذلة عالة ليحكم فيهم بما شاء وكيف شاء فامتحنهم ثم عفى عنهم عندما أقروا له بالفضل واعترفوا بالخطأ فقالوا: تاللّه لقد آثرك اللّه علينا وإن كنا لخاطئين، ولما رأيت القوم لم يكفوا بالإحسان إليهم والحلم بعد الجرم عاملتهم بطرف من الجهل فكان ذلك أردَّ لصولتهم وأكْسَرَ لشوكتهم معتمداً على اللّه تعالى ومستنداً إلى قوله تعالى «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» فلم أعتَدِ بالمثل تغليباً لجانب العفو، وقال اللّه تعالى لا يحب اللّه الجهر بالسوء من القول إلّا مَن ظلم. قال القاضي أبو محمد الحسن بن عبد الرحمان بن خلاد ليس الحلم في كل المواطن محموداً كما أنه ليس الجهل في كل الأحوال مذموماً.

وأنشدوا في المعنى:

أبا حَسَنٍ ما أقبحَ الجهلَ بالفتى وَالحِلْمُ في بعض الأحَايِنِ أقبحُ
إذا كان حلمُ المرء عون عدوة عليه فإن الجهل أغنى وأروح
وفي الحلم ضَعْفٌ والعقوبةُ قوةٌ إذا كنت تخشى كَيْد مَنْ عنه تصفح

وقال آخر:

لن يدركَ المجدَ أقوامٌ وإن كرموا حتى يذلوا وإن عَزّوا لأقوام
فيصفحوا فترى الألوان مصفرةً لا صفحَ ذل ولكن صفحَ أحلام

وإنْ دعا الجارُ لبوا عند دعوته ... في النائبات باسراج والجام

وقال النابغة الجعدي وهو مما أنشده النبي صلّى اللّه عليه وسلم فاستحسنه:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أورد الأمر إصدار
إذا كنت بين الحلم والجهل قائماً ... وخُيِّرتَ أياً شئتَ فالحلمُ أفضلُ
ولكن إذا أنْصَفْتَ مَنْ ليسَ مُنصِفاً ... ولم يرضَ منك الحلم فالجهل أمثل
إذا جاءني من يسئل الجهل عامداً ... فإنني سأعطيه الذي جاء يسأل
ولـم أُعْطِهِ إيّاه إلّا لأنه ... وإن كان مكروهاً من الذلّ أجملُ

وقال آخر:

أولئك قومي بارك اللّه فيهم ... على كل حال ما أعفّ واكرما

وقال المفضل الضبي:

تعفو الملوك عن العظيـ ... ـم من الذنوب لعضلها
ولقد تعاقب باليسير ... وليس ذاك لجهلها
إلّا ليعرف حلمها ... ويخاف شدة نكلها

هذا الزمانُ أكثرُ أهلِه: هدّامون على كل بناء، رمادون على كل شواء:

قال الشاعر:

متى يبلغ البنيانُ يوماً تمامه ... إذا كنت تبنيه وغيرُك يهدم

واعلموا أيها الإخوان في اللّه أنه لا أحد بعد اللّه أَثِقُ به في الحديث غيركم فَجِدُّوا في رد هذه الفتنة قبل استحكامها، واجتهدوا في إطفاء هذه الجمرة قبل اضطرامها، فإنّ دَفْعَكم إياها أَخْمَدُ لِنارِها وأدفعُ لشنارها، واجعلوا ذلك للّه والإخاء فيه لكي تعاونوا على ذلك فإنه ما تصعب أمر أنت داخله بربك ولا سهل أمر أنت داخله بنفسك ولذلك قال اللّه تعالى لنبيّه «وقل رب أدخلني مَدخَل صدق وأخرجني مَخْرَجَ صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً» وإن القوم متوجهون إليكم بالرشا لهدم ما بَنَى اللّه

فياكم وقبولها فتدلونني بها وهي فانية والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيرٌ أملا فإن اخترتموني عن كل شيء كنت لكم خلفا من كل شيء فكأني المؤنة وأنالني المعونة قال الرسول صلى اللّه عليه وسلم في حديث قدسي يرويه عن ربه «لا يعتمد علي عبد من عبادي أعلم ذلك من نيته فيكيده أهل السموات والأرض إلّا جعلت له من ذلك فَرَجَاً ومَخْرَجاً وإنما دعوتكم لهذه النازلة مراعاةً لقوله تعالى و«تعاونوا على البر والتقوى». وقوله صلى اللّه عليه وسلم «المرء كثير بأخيه» وقوله «أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» فقال رجل يا رسول اللّه أنصره مظلوماً فكيف أنصره ظالما؟ قال امنعه من الظلم واحجزه عنه فذاك نَصْرُه. وفي رواية فليأخذ على يديه.

ومن هذا النمط قول الشاعر:

وإذا يصيبك والحوادث جَمّةٌ — حَدَثٌ حداك إلى أخيك الأوثقِ

وقال آخر:

أخوك الذي إنْ سَرّك الأمرُ سره — وإن نَابَ خَطْبٌ ظلَّ وهو حزينُ

يُقَرِّبُ مَنْ قَرَّبتَ من ذي مَوَدَّةٍ — ويُقْصِي الذي أقْصَيتَه ويُهينُ

وقال علي بن أبي الحوري: سمعت أبا سليمان الداراني يقول: ليس من علامة الحب أن تحب من يُبْغِضُه حبيبُك. وقيل لخالد بن صفوان: أيُّ إخوانك أعجبُ إليك؟ قال: الذي يغفر زلَّتي ويقبل عللي ويُبْلِغُني في النائبات أملي.

روي أنّ قوماً تذاكروا الأخوة في مجلس عبدالملك بن مروان فذكر كل ما عنده، وهو ساكت، فقالوا له: ما حقيقة الأخوة عندك يا أمير المؤمنين؟

إن أخاك المصاحب في السمر — وأين المصاحب في المرء أينا

الذي إن حضرتَ وأنت في الحي — وإنْ غبتَ كان أذْناً وَعَيْنَا

وعن جعفر بن محمد بن علي قال:

أوصاني أبي فقال: يا بني لا تصحب خمسةً ولا تجالسْهم، لا تصحبنْ فاسقاً، فإنه بائعُك بأكلةٍ فما دونها، قلت يا أبتِ فما دونها؟ قال الطمع فيها فلا ينالها، قلت يا أبتِ فمن الثاني؟ قال لا تصحبن خِبّاً فإنه يقطعك أحوج ما تكون إليه، قلت يا أبتِ فمن الثالث؟ قال لا تصحبن كذاباً فإنه بمنزلة السراب يقرب لك البعيد ويبعد لك القريب، قلت يا أبت فمن الرابع؟ قال: لا تصحبن أحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضّرك، قلت يا أبت فمن الخامس؟ قال لا تصحبن قاطع رحم فإني وجدته ملعوناً في ثلاثة مواضع من كتاب اللّه في الذين كفروا وفي البقرة والرعد، والمعتبر في الأخوة أخوة الدين لا أخوة الطين. قال اللّه تعالى «إنما المؤمنون أخوة» وفي المثل: «الصديق الموافق خير من الشقيق المنافق». وقالوا جعل اللّه في الصديق البار عوضاً عن الرحم قال الشاعر:

وكم من بعيد صادق الود مخلص — وذي رحم القرابة قاطعِ
تمسك بحبل المطمع الوصل واحترس — وصال سواه من قريب وشاسع

وقال الشاعر:

أخو ثقة يسُرُّ بحسن حالي — وإن لم تُدْنِني منه قرابة
أحبُّ إليَّ من ألفي قريب — بنات صدورهم فيها حرابه

وقال آخر:

كيف أجفو من غِدٍ تعرّفت منه — خلفاً بارعاً ووداً كريما
لم أقايس به الإخلاء إلّا — كان عند حميدهم مذموما

واعلم يا كاوي أنك عرّفتني مواعد حسنة فإنْ وَفَيْتَ بها فقد أمطر فرنك وذهب حزنك وهي قولك كل من جاء من أهل القبلة فهو نازل وقد أعطيته لي فلا ينازع فيه منازع الثاني إعطاؤك المواثيق لي أنك لا تخالف لي أمراً ما عشت، الثالث أنك لا تبدلني بمال، ولو بلغ من البحر المالح

إلى ملك الدنيا تريد العثماني وقد حفظتها عليك فأحصيتها والناس مقبلون عليك على أن تنفض جميع ذلك وهم منافقون كَذَبَة فإياك أن تطيعهم في ذرةٍ من ذلك فيكون برقُك خُلَّباً، وعهدُك خلفاً، وأنا في جميع ذلك متوكل على اللّه وكفى به وكيلاً ثم إن العاقل الكريم يفتح به نقض العهد ولو كان المعاهد كافراً. وروي أن سبب الوفاء العقل الوافر والعرض الكامل، وعن عامر بن قيس قال: إذا عقلك عَقْلُك عمّا لا ينبغي فأنت عاقل وإن العلماء مثّلوا العقل فجعلوا له جوارح كجوارح الجسد ففمه وعيناه البراءة من الحقد والحسد، وأذنه الفهم، ولسانه الصدق، وقلبه صحة النية، ويده الرحمة، وقدمه السلامة من الغش، وسلطانه العدل، ومركبه الوفاء، وسلاحه لين الكلام، وسيفه الرضا، ورمحه المصالحة، وسهمه التحبب، وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «العِدَةُ دين، وويلٌ لمن وَعَدَ ثُمَّ أخلف» قالها ثلاثاً. وعن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تَعِدْه موعداً تُخْلِفُه فيكون قطيعة بينك وبينه». ومن حديث علي رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «مَنْ أحَبَّ أن تدوم له مودةُ أخيه فلا يَعِده موعداً فيخلفه» ومن حديث أنس بن مالك قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «تحملوا إلى بست أتحمل لكم بالجنة» قالوا: وما هي يا رسول اللّه؟ «إذا حدّث أحدكم فلا يكذب، وإذا وعد فلا يخلف وإذا أؤتمن فلا يَخُنْ وغضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا أيديكم». ومن حديث علي بن موسى الرضا قال حدثني أبي عن أبيه عن آبائه عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: من عامل الناس ولم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو مَنْ كَمُلَتْ مروءته وظهرت عدالته، ووجبت أخوّته وحُرِّمَتْ غيبتُه. ومن حديث الحسن عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال: ثلاث من كنّ فيه: فهو منافق، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: «مَنْ إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان».

ونظم بعضهم في المعنى فقال:

وإذا منعتُ منعتُ منعاً بينا ... وأرحتُ من طول العناء الراغبا
وإذا وعدتُ الوعد كنتُ كغارم ... ديناً أقرُّ بـه وأحضرُ كاتبا
حتى أنفِّذَه على ما قلتُه ... وكفى عليك به لنفسك طالبا

ولما مدح الله نبياً من أنبيائه قال «إنه صادق الوعد» وكان يقال آفة المروءة خُلْفُ الوعد، وكان إبراهيم بن يسار أوفى خلْق اللّه بعدة قال له انسان مرة انتظرني حتى آتيك، فقال إلي أمّا أن تجيء فلا، ولكن أنتظرك إلى العشاء مخافة أن يخلف الوعد. روي أن عبداللّه بزعم وعد رجلاً أن يزوجه ابنته ثم تمادى به الأمر حتى حضرَه الموتُ فبعث إليه فزَوَّجه، وقال كرهت أن ألقى اللّه بثلث النفاق وقال بعض الحكماء: المواعيد سحاب والمطر الوفاء بها، وكان عليّ يقول خير المقال ما صدقه الفعال، وقال: «ليس في البرق اللامع مستمتع لمن يخوض الظلمة ما أحسن المقال إذا صدقه الفعال».

وقد أنشدوا فقالوا:

يقول فيحسنُ القولَ ابن ليلى ... ويفعل فوق أحسن ما يقول

وقال أحنف بن قيس خير الصنائع إنجاز وعد، ووفاء بعهد وقال يحي بن خالد: المواعيد شبكة من شباك الكرام يصطادون بها محامد الأحرار، وقال المثنى بن حارثة لأن أموت عطشا أحَبُّ إليّ من أن أخلفَ وعدا وقال عبدالملك بن مروان لبنيه: لا تَعِدُوا الناسَ بما لا تنالُهُ أيديكم فإن اليأس احدى الراحتين، وقال جعفر: إن محمد اعتذر من منع أجمل من وعد ممطول، وكان يقول: وعد الكريم نفد وتعجيل، ووعد اللئيم منع وتسويف، وروي عن بعض الحكماء أنه قال: الوعد نافلة والانجاز فريضة فلا تفرض على نفسك فريضة وعدٍ لا تنوي انجازها، فيعود ما طلبت من المحمدة مذمة، ومن المصافاة ملاحاة، وعن الحسن فضل الفعال على

الكلام مكرمة. وفضل الكلام على الفعال عار.

وأنشدوا:

إن المُعلّى بن أيوبٍ له شرفٌ   ما زال يرفعُ أحياناً فترتفعُ
إنْ قال افعل شيئاً فهو فاعله   أو قال: لا. لم يكن في غيرها طمع

واعلموا أنه لا أقيم على الضيم.

قال الشاعر:

ولا يقيم بدار الذلّ يألفها   إلّا الاذلان عبد الحي والوتد
هذا على الهون مربوط برمته   وذا يُشَجُّ فلا يرثي له أحد

وقال صالح بن عبد القدوس:

وإذ رأيت الرزق عَزَّ ببلدةٍ   وَخشِيتَ فيها أنْ يضيقَ المَذْهَبُ
فارحل فأرض اللّه واسعةُ الفضا   طولاً وعرضاً شرقها والمغرب

وقال غيره:

بلوُمتّي أن بعتُ بالرُّخصِ منزلي   ولم يعلموا جارا هناك يُنَغِّصُ
فقلت كفوا السملام فإنما   بجيرانها تغلو الديار وترخُصُ

وقال اللّه تعالى «ومن يهاجر في سبيل اللّه يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة». وقال صلى اللّه عليه وسلم: «الهجرة لا تنقطع إلى يوم القيامة» وليس بين هذا وبين قوله صلى اللّه عليه وسلم «لا هجرة بعد الفتح» تناقض. فقد قال ابن الصلاح معناه لا هجرة واجبة على أصحابه حينئذ لتغلبهم على الكفرة وأمْنِهم الفتنة كما قال اللّه لهم «قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله للّه» فقد وقع ذلك في آخر دولته صلى اللّه عليه وسلم وبتمام دولة الشيخين فإذا ثارت الفتنة وجبت الهجرة كما أخبر بذلك الصادق المصدوق صلّى اللّه عليه وسلم تعالى المسؤول في إنجاز السول وبلوغ المأمول وهو حسبنا ونعم الوكيل والسلام عليكم لا يحول ولا يزول.

المحتويات